محمد برادة

لعبة النسيان

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

محمد برادة

لعبة النسيان

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

نص روائي

دار الأمان

للنشر والتوزيع
4، زنقة المامونية
الهاتف 72.32.76 الرباط

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

تصميم الغلاف : .
للفنان كمال بلاطة
الصورة الفوتوغرافية :
لداوود ولد السيد

طبعة 2003-1424

© جميع الحقوق محفوظة

مقدمة للطبعة الثالثة

يَنْتَابُني شعور خاص، وأنا أقدم لهذه الطبعة من «لعبة النسيان» المخصَّصة لتلاميذ السنة الثانية الثانوية، شعبة الآداب العصرية. أُحِس أن هذه الرواية نجحتْ في أَن تستقلَّ عني لِتُشَيِّد لنفسها «حياة» تتَّسع عبر مُخيِّلات القراء وعَبْر ما يحملونه إلى نِسْيانها من تَذَكُّر وإضافات.

لم يكن يهمُّني ــ حين كتبتُ لعبة النسيان ــ أَن أُؤَرّخ أو أَن أَتذكّر، وإنما كنت أُوهِمُ النفس أن الكتابة تُتيح الاقتراب من أعماق الزمن وَمَتَاهاتِهِ كما تُتيح التَّأمل فيما عِشناه مُتشابِكاً، مُتداخلاً، غَائِمَ القَسَمات. ومن ثمَّ اللجوء إلى فضاءات الطفولة والمراهقة والشباب بحثاً عن زمنٍ لم يَعُدْ موجوداً إلاَّ في الذاكرة والحلم وفيما تَخْتَزِنُهُ الذَّاتُ الواعية. ولأننا تعوّدنا على النسيان، فإننا لا نَنْتبه كثيراً إلى تغيُّر الأشياءِ مِنْ حَوْلِنَا وإلى تغيُّر علاقاتنا وذواتنا. ولكن، يكفي أن تَنْبَثِق بعضُ اللّحظات من منطقة النّسيان فينا، لتبدأ ديناميةُ التذكُّر وليبدأ الخيال في نَسْجِ ما هو كامِنٌ في اللاَّشعور وفي الذَّاكرة الغافية. هكذا انطلقتُ في كتابة «لعبة النسيان» وكأنني أُمارس لعبةً، لكنها لعبة قَادَتْنِي إلى أجواء ومناطق تختلط فيها الابتسامةُ بالأَلَم والسخريةُ بالمرارة.

وإذا كان لي من شيءٍ أقوله للتلاميذ الذين سيقرأون «لعبة النسيان» ضمن المؤلفات، فهو ألاَّ يختزلوها إلى مجرَّد نَصٍّ يمكن أن يُسألوا

فيه عند الامتحان، بلِ أن يعتبروها «حياة» موجودة، الآن، خارج مُؤلّفها. وتحتاج إلى تَفاعلهم وردود فعلهم وإلى أَخْيِلَتهم وإضافاتهم حتى تتمكّن من أَنْ تَسْتَعِيد زَمَنَها عبر ذاكرتهم...

أَتمنى لـ «لعبة النسيان» حياة أَسعد وهي تبدأ دورةً أخرى مع مُخيلاتٍ وذاكرات فَتِيَّة قادراتٍ على العطاء وتجديد القراءة.

محمد برادة

1995-5-17

www.liilas.com/vb3

MALLOULI

في البدء كانت الأم

مشروع بداية أول:

«منذ الآن لن أراها، قلت في نفسي وهم يضعون جسمها الصغير المكفن داخل حفرة القبر ويُهيلون عليها التراب، وأصوات الفَقْيَة ترتفع فجأة عن سابق مستواها لتصاحب العملية الأخيرة: «تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير...».

ومن ورائي كان زوج أختي يهمس لي: انتقلتْ إلى دار الحق وبقينا في دار الباطل...».

www.liilas.com/b3

مشروع بداية ثان:

MALLOULI

«يصعب أن نتحدث عن الأم. كل أم تملأ فراغات متعددة. تنتصب شجرة وارفة الظل نلجأ إليها، نعاملها بمنطق مغاير لما نتعامل به مع الآخرين. حتى حين تقسو تظل في أعيننا ذلك الطائر النادر والواحة الظليلة...».

ثم صارت «البداية» هكذا: «يكاد يكون زقاقا لولا أنه طريق سالكة...

يكاد يكون زقاقا لولا أنه طريق سالكة تُفضي بك إلى باب مولاي إدريس، والنجارين، والرصيف، والعطارين... وباب الدار الكبير لا يُواجهك، تجده على يمينك إذا كنت نازلا من «كْرنيز»، أو على يسارك إذا أتيت من «سيدي موسى». نصفُه الأعلى قطعة واحدة مرصعة بمسامير غليظة، والنصف الأسفل الذي ينفتح، له خرصة كبيرة ويمتد نصف متر إلى ما تحت مستوى الزقاق، وعلى الداخل أن يحني رأسه ويخطو خطوتين، ثم ينزل الدرج ويخطو قبل أن يواجهه الباب الثاني، شبيه الأول غير أن خَشَبَه أقل ثُخُونة ودرجهُ أقل علوّا، ثم يخطو ثلاث خطوات ليقطع السطوان الثاني

قبل أن يرتاد الباب الثالث ذا الخشب النحيل، ويجتاز العتبة لِتُطالعه السواري، وفناء الدار، والخصَّة التي ينفر منها الماء في دفقات متكسرة. ثلاث غرف كبيرة ممتدة على طول ثلاثة أضلاع مُرَبّع وسط الدار الواسع. وعلى الضلع الرابع، غرفة أصغر بدون دفَّتين يسمونها «بَرْطال» أي الطائر الصغير، أثاثها خفيف وتخَصِّص للجلسات العابرة وللحظات اللَّغو بين نساء الدار.

في هذه الدار أشياء كثيرة وأُسَر متعددة: اثنتان تسكنان في السُّفْلى، وواحدة في الصقلبية، واثنتان في الفُوقي، وواحدة في «المصرية» ... وفيها السطح الفسيح ملتقى نسوة البيوت المتجاورة ومسرح غراميات الأولاد والبنات، خاصة خلال سهراتهم أيام حراسة «الخليع» ليلا إلى أن يجفّ.. وفيها «الرّوَا»، إصطبل خيْل مالكي البيت أيام العزّ، قبل أن يؤجروا جزءا منه.. وفيها الطارمة الخشبية داخل كل غرفة، والحمَّام المهجور الذي أصبحت تسكنه الأشباح ويُخوّف به الأطفال...

في هذه الدار أشياء كثيرة، لكن أهم ما فيها الأم. لا أحد يسميها الأم، إلاّ أنها تملأ الحيّز كله، وتستقطب الحوارات جميعها، وترد على المتحدثات بصوت مرتفع في السفلي والفوقي والصقلبية. لا أحد يسميها الأم. يدعونها «لالّة الغالية» ولكنهم يُقِرُّون بينهم وبين أنفسهم بأنها «الأم». وهي لا تكفّ عن الحركة: تجلو الأواني، تذوق الطاجين، تغسل الزليج وتَرْفو الثياب.. ويكون العصر موعدا لزيارة الأهل والأقارب، أو الجلوس في الفسحة المخصصة للنساء بضريح مولاي إدريس.

تسير مخترقة الأزقة الغاطسة في فسيفساء العتمة والضوء، بجِلبابها ووجهها المدور الصبوح خلف اللثام. تسير متمهلة، متابعة الحركة الدائبة والأصوات المائلة للفضاء الضّاج.. ومن حين لآخر، تلتقي أحدا تعرفه، امرأة أو رجلا، فيكون التوقف للسؤال عن الأهل والأحوال. هذه الخرجات ضرورية، تُتيح للالّة الغالية أن توثّق الأواصر وتطفىء غلتها في التواصل والتّوادد. كأنها لعبة مسلية، متفق عليها داخل فضاء فاس القديمة، في ظلّ

توازن ضمني بين الرجل والمرأة يسمح لها أن تكون حاضرة لا يُستغْنَى عنها، كالملح للطعام، ولكن عليها أن تظل من وراء حجاب، لأن قيم العشيرة المتوارثة تقضي بذلك.

لَنُطلّ على لالّة الغالية، هذا الصباح، وهي في الدار الكبيرة. تضع «البقرج» على النافخ وتشرع في تحضير الصينية: أتَاي الساعة الحادية عشرة شبْه مقدس. استراحة وحديث، مزاح وشُجون. تتجه حاملة الصينية إلى البرطال. هناك الجدّة العجوز متمدّدة على لِحَاف، لا تقوى على الحركة لكنها تتابع كل ما يجري في الدار، وتشارك، بالحديث. تقول لالة الغالية:

– الدّرَاري تْعَطلو. فاتت لَحْدَاشَرْ.. عَنْدَك يكونو مشَاوْ يْلَعْبو الكرة ونْسَوْ لي الخبز فَالْفَرَّان ؟

الجدّة ترد:

– دَابَا وْهُمَا جَاوْ.

ترفع لالة الغالية صوتها لتنادي زوجة أخيها من الدّويْرية:

– يا «فاختة» أجي بَعْدا نشربو كاسْ دا أتاي، هاذ الشغل ما تَيَبْغي يَتْقاضى.

تطل رقية من الصقلبية وتقول:

– الله يطعمنا حْلاَلْ.

– مرحبا بك.. يا مالين الفوقي هَبْطو تشربو أتايْ، الحمد لله السكر ما بْقاشي بِالْبُون. الحرب تْسالاتْ.

تَلْتَئِمُ الدائرة شيئا فشيئاً حول الجدة ولالة الغالية، ويدور الحديث في الخاوي والعامر، في أخبار الصحة وأخبار الأقارب، ومصائب الوقت، وشيطنة الأولاد والبنات...

لكن نساء الدار، هذه المرة، يَحُمْنَ حول موضوع يَمسُّهنَّ جميعاً، وهو سفر لالة الغالية إلى الرباط لتعيش مع ابنتها التي ستتزوج هناك. يَسْأَلْنَها فتجيب:

— إيوَا بنت وحدة هي، وتَيخُصنّي نَاخُذْ بِيِّديها .. وساعة ساعة أنا معاكم .

— لا، ألالة الغالية، ما عملناش معك هكذا؛ حتى لَلْهُروب ما قَدّينَا عليه. حْنا ما نَسْخاوْشي بك...

— ربي يخليك ألالة رقية.

يصل الولدان، أكبرهما يحمل وَصْلَة الخبز فوق رأسه، والأصغر يحضن محفظتين صغيرتين. تبدأ النساء في تقبيلهما. تحتضن لالة الغالية الهادي وتُجلسه فوق ركبتيها وهي تقول:

— شْكُونْ يا خيتي عَنْدُو ولد غْزَالْ بْحال ولدي ؟

تقول فاختة مشاكسة:

— خْسارتو رْقيوَقْ بحالو بحال بُوسْلُوفَانْ

— ما خَصَّك ولا وَاتَاكْ.. هاذا الزين الفاسي الحُرّ. تُقَبِّل الجدة الطايع وتقول:

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

— ها ولدي أنا؛ عاقل ورزين. الهادي مْفَشَّش وطايَحْ على جْنَاب الوصلة.

تردّ الأم:

— هو ولد حْبِيبُو. يخَلّيلُو ربي حبيبو اللّي تَيْفششو .

تُقاطعهن رقية:

— إيوا لالة، قومو نكملو اشْغالنا، ما بْقى للرجال غير يدخلو.

تعود الحركة إلى الدار، وتختلط الكلمات بأغاني المذياع، وبأصوات الحمالين وأصحاب الحمير الذين تتناهى أصواتُهُم عبر الأبواب الثلاثة المفتوحة:

— بَلاَكْ، اسمع بَلاَك.

الولدان في السطوان يتقاذفان كرة الشراويط الملفوفة في جورب؛

ومن خلَل الشباك الحديدي ذي المربعات الصغيرة المغطّي لسطح الدار، تصل أشعة الشمس التي بدأت تَسْتَوي عمودية في القبة الزرقاء. والخطاطيف تواصل ذهابها وإيابها بانية فوق رتاج كل دفّة، عُشّا وارفا.

من جديد تبدو الدار وكأنها لاتمتلىء إلاّ بالأم لالة الغالية. وهي، في لحظات صَمْتِها وتفكيرها، تَغُور إلى أعماق الدار، وتمتزج بزليجها وسواريها، تنغرس في حمّامها المهجور وإصطبلها وَرَدهاتها: ظلاّ حاميا للدّار تصير.

حين توفي زوج لالة الغالية، ترك لها بنتا في العاشرة وطفلين أحدهما في الرابعة، والأصغر في الثانية من عمره. ما تَرَكَهُ من متاع قليل يُدرُّ عليها ما تَعُول به الأولاد، وأخوها «الطيب» يَنُوبُ عنها في قَبض كراء البيت والدكان. الآن، الولدان يذهبان إلى مدرسة حرة، والبنت لم تتعلم سوى الطبخ والنفخ، والطرز، والحشمة والأدب.

أخوها، الطيب، عاقر، توفيت زوجته منذ سنة، وتزوج للمرة الثانية من فاختة. تحب لالة الغالية أخاها «سِيدْ الطيب» كما تدعوه، كثيرا؛ لذلك قررت أن تترك له الهادي ليربيه ويستأنس به. نَصَحها نَاس جْواد بأن تزوج بنتها «نجيّة» لشاب سُوسيّ يعمل نادلا بأحد مقاهي الرباط. وهي تريد السّتر لابنتها وتعلق كل الأمل على ولديْها، فلم تجد مناصا من أن ترحل إلى الرباط صحبة ابنها الطايع لتسهر على ابنتها وتساعدها في تدبير شؤون البيت.

هذه الدار، بدون لالة الغالية، ستفقد نكهتها. والنساء المتحلقات حولها، وقبل سفرها بشهرين، يعرفن ذلك جيدا. يستحضرن المشاهد كلها التي تلألأت فيها لالة الغالية: في الأفراح، عند تقطير الزهر، عندما تمرض واحدة منهن، عند مخاصمتهن لأزواجهن... لالة الغالية تأخذ المبادرة، تساعد وتقدم الهدايا، تضحك وتروي النوادر، تستدعي الفقيهات لترتيل القرآن والأمداح النبوية، تحكي ما تشاهده عند بعض أقاربها الذين اغتنوا وسكنوا في المدينة الجديدة، أو بالقرب من طريق إيمُوزار... الحضور المُشِعُّ من

شخصيتها يُضفي عليها صفةَ الجِذْر الممتدّ إلى خارج هذه الدار العتيقة المنغرسة في زقاق عميق من أزقة فاس. كان زوجها يُتاجر في الكتّان والملف، وكان ربحه وفيرا، ولكنه كان ينفق كثيرا في الأكل والثياب، يحب أن يرتدي كل أسبوع جلبابا وسلهاما، يتعطر بأحسن الطيوب، ويكثر من الولائم والأفراح. تزوجته لالة الغالية وهي صغيرة السن. كان أبوها قد نزح إلى فاس من ناحية قَريبة، واشتهر بجودة الخُضر والغلة التي كان يبيعها في الرصيف، كما اشتهر بِتَقواه واستقامته... وزوجها من أصل أندلسي، استوطنت عائلته فاس من قديم.

إضـــــاءة:

عرفناها فَأَلِفْناها. أَحْبَبْنَا وجهها الممتلىء المدوّر، بسمتها الذكية، واهتمامها بالناس. تحبّ أن تُسعف. تُواسي وتنصح. تخاف الزمن أكثر مما تخاف البشر. موت زوجها قبل الخمسين أذْهلها. أصبح يلازمها شعور بأنها بيت بلا سقف. لكنها صَبور وعنيدة في صبرها. تعلمت أن تقارع الأيام وأن تستعدّ للمفاجآت. كريمة مع الآخرين، إلاّ أنها متقشفة على نفسها. تحثّ ولديها على العمل، وخلال العطل المدرسية تدفعهما إلى بيع الفقّوس والحلوى في باب الدار لأطفال الحومة. تُردّد على مسامعنا:

– اليتامى تَيْخَصّ يكون قلبهم حارّ.

رفضت أن تتزوج مرة ثانية. أصرت على أن تربي بنتها وولديها. عندما تغادر الدار، لمناسبة ما، نُحس الكآبة والكدر. يَنْزِل علينا الضّيم. لالة الغالية تملأ جنبات الدار وتُسبغ على الساعات مذاقا خاصا. تعرف أكثر منا، ولكنها تؤثر أن تُثير كلماتنا المحبوسة في حلوقنا. نحكي لها أسرارنا وما يمُضّنا في علاقاتنا مع أزواجنا، فنجد عندها ما يخفف ويُواسي. شيء ما في قلب هذه المرأة يشد الناس إليها. حتى الزائرات من أقاربنا يُحبِبْنها، فتصير نقطة مضيئة في ذكرياتهن ويسْألْن عنها باستمرار.

في لحظات صمتها تُجللها كآبة عميقة غير أنها لا تتركنا نحس بها. ما يُغيظنا أحيانا هو حبها المفرط لأخيها الأكبر الطيب. تلهج بِذِكْرِه، وتتحمل كل الاهانات من زوجته. لا تسأله حساباً عن كراءاتها. تأخذ ما يمدُّه لها. تحدثه باحترام ولا تحب أن يتحدث عنه أحد بسوء. وعندما تُلمّحُ واحدة منا إلى مغامرات الطيب وَوُلُوعِهِ بالنّزاهة والاستماع إلى ألف ليلة وليلة، والانتشاء بأوتار العود ورشفات الكؤوس، تتنهد وتمسك عن الكلام.

هو أيضاً يحبها. تَعَاطُفُهُمَا يُظَلِّل الدار، ويوشج الروابط بين سكانها. الألفة والمودة تَنْزرع في الأفئدة عندما نراها مُشخَّصةً أمامنا.

لالة الغالية : الُّلطافة والظرافة. مَسْرَارة. السّر ولمَّن عطَاهُ الله ... نستفيق على صوتها ونحن في الفراش ما نزال نَتَكَسَّل بعد أن غَادَرَنا الأزواج. تصيح بنا :

ــ ألعْيالاتْ، بَارَكَا ما تْحكُّو ما بين فْخادكم ... الشمس رَاها فَوسْط الدار .

www.liilas.com/vb3
MALZOULI

نبتسم ونستعيد دفء الليلة الماضية. نفكر أنها باتَت في «شُونْ» ولديْها، وأنها استيقظت لُتصلي الفجر وتسعف أمها على قضاء حاجتها. من حين لآخر، تخرج لتشتري السفنج، وتُعدّ الفطور ثم تُنادينا .. وفي بعض الأيام تعجن رغايف بِإدام الخليع ... كنا شيئآ أساسياً في حياتها، ونحس دائماً أننا لا نعرف كيف نعبر لها عن حبنا. جعلتنا نتعود على كرمها ونتفيّأ ظلال أمومتها طوال إقامتها معنا. كأن الدار الكبيرة كانت مستكفية بذاتها بالرغم مما كان يقع خارجها وتتسلل أصداؤه إلينا.

تعتيم :

أقول الآن : الأم، كالموت، وعلى عكس الأب، لا يُفكَّرُ فيها إلاَّ من خلال الافتقاد.

لكنني أحسك حاضرةً ومكتسحة. تلازمني مشاهد الذكريات، وأقطع حواراً معك لأبدأه من جديد، ثم تنثال الاستحضارات دفعة واحدة فلا تترك لي مجالاً لترتيب الافكار، وضبط المشاعر، والتمييز بين الأزمنة والأمكنة. فضاء شاسع، متناسل، يَضُمُّنا. ووجهك، أينما لاح، يمنحني الزهو ويوقظ الكوامن، فأشتهي كل العالم مرة واحدة وتَنْبَجِسُ الرغبة الملتبِسة فأقول إنني أبدأ الحياة .

لا نخسر شيئاً إذ نجهل الأب. يمكن أن نولد في غيبته، ويمكن أن نبتدع أباً ونطمئن إليه. لكن الأم لا تُبْتَدَع : تخلقنا وتجعل كل صورة نتخيلها عنها ضئيلة وهشَّةً أمام صورتها المُنْحَفِرة في الدم والشهوة والخلايا ...

أذكر الطفولة فأذكر الشباب. وأذكر المراهقة فأذكر مَصَّاتِ الرضاع، وملاسةَ حلمة الأم وحلمة العشيقة. حتى عندما كنتُ بعيداً عنكِ ــ هل حقّاً أنتِ الآن بعيدة ؟ ــ كنتُ أفترض أنك جزء مني لن يغيب إلا معي. وأشياء كثيرة لا أقولها لكِ لأنني أفترض أنك تعرفينها، ثم أكتشف وقد غِبْتِ – هل أنت حاضرة ؟ – أنني لم أقل الحبَّ والهواجس والاستيهامات التي لن يفهمها ويغفرها أحد سواك.

أجلس الآن – هل تذكرين ؟ – على حافة اللّحاف فوق السطح، وأنت ونساء أخريات تَجْلِسْن منهمكات في حديث طويل. نسائم بحرية من هذه المدينة الشاطئية تُنعش ذكرياتنا عن المدينة العريقة التي قد تركتُها بدوري. آخر أيام شعبان والمدافع ستعلن بعد قليل ثُبوتَ شهر رمضان. أنا الآن أكثر من طفلك المدلّل. ستقولين لي: اكتب رسالة إلى خالك لتُبارك له في حلول هذا الشهر المعظم، ولاتنس أن تسلم على أحبابنا سكان الدار «كل واحد باسمه».

أكتب ويتلعثم القلم بين أصابعي. زادي من الكلمات لا يفي. كنت بدأت بقراءة قصص كامل الكيلاني، ولعبة اختزان اللغة الجميلة «المعبرة»

تستهويني، والتراكُب بين الكلمات والعلامات آخذ طَريقهُ.. فأنا أحمل ما التقطته الذاكرة أثناء القراءة الجماعية لصفحات من ألف ليلة وليلة صحبة خالي بضاحية «باب الكيسة»، وأصحابه متحلقون حول طالب من جامعة القرويين، يقرأ لهم بصوت مرتفع. أمد رأسي وأُصيخ معتزا بهذا الامتياز يُعطى لي أنا الطفل بين الكبار. ضاعت الكلمات وبقيت الصور الأسطورية الهلامية: بقي الطّيْفان الفاتنان، زبيدة (آه ! كم ناجيتها) والرشيد. وهذه الرسالة أكبر امتحان يواجهني، فأنا أدرك أن هناك كلمات مناسبة للمعنى، ولكنني أتعب عبثا في البحث عنها في ثنايا سجلّ الذاكرة الفتية.. وأعلم أن حْبيبي وأهل الدار الكبيرة ينتظرون أن يقرأوا ما يجعلني مُتغيّرا، ناضجا، بعد رحيلنا إلى هذه المدينة الشاطئية.

أقرأ عليك ما كتبته فتُلِحّين عليَّ لأُضيف: «نحن بخير ولا يخصنا إلاّ النظر في وجهكم العزيز»، وأعترض ثم أذعن، وصديقاتك الجديدات يُهنئنك على ما كتبه ابنكِ النجيب. لكن ما كتبته ينبش صورا أخرى ويشدني إلى ما لم تُلامسه الكلمات: الدار العتيقة والسطح والدرب، وبنات الجيران، ولالة ربيعة ترقص دوما في مخيلتي بعينيْها اللوزيتين الضاحكتين، طيفا ضعفا لزبيدة زوجة الرشيد المنقوشة برغائب مشتعلة في منطقة الشهوة والحب والتعلق بالحياة.

ما لم تلامسه الكلمات أيضا، ذلك الحنين الخفي، كَالوَجَعِ الساكن، إلى خالي سيد الطيب وإلى أُلفته. لم أكن أتصور أنني أستطيع أن أعيش بعيدا عنه. لكنك، وحدك، ملأت الحيز الموحش في الأعماق، فانتقلت إلى أُلفتك عبر لعبة الحنان والقساوة. كنت تفتحين عيني على فضاء التحول في المدينة الشاطئية، وعلى الطفولة أن تنتهي قبل أن تستوفي زمنها لأواجه معك، وبرفقة الطايع، فترة الفقر والتحايل على العيش... ذلك الواقع الذي لم أكن أحسه بين حنايا مدينتنا العتيقة وفي ظلال حنان الخال الطيب.

www.lilas.com/vb3
MALLOULI

ما لم تلامسه الكلمات كثير. لكنني أحس الآن أنها كانت بداية لنضج مبكر، لرؤية الأشياء عبر مسافة الكلمات.

هل كانت تجربة كتابة تلك الرسالة بداية أيضاً لابتعادي عنك وعن الآخرين؟ أحس بالعجز عن القول لأن بريق الكلمات يجذبني إلى كوكب مضيء، أخطو فوقه فأُحسني أغوص. أتحرك ثم أجرى لاهثاً لأُلَمْلِمَ «كُلَّ» الكلمات وتظل الأشياء غامضة متأبية، فأهرب منها ولا أطال انتهاك حُرمة ما يبدو باستمرار مقدساً.

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

سيد الطيب

يستقيظ باكرا كل يوم. يرتدي جلبابا شفافا في الصيف، وجلبابين صوفيْن خلال فصل الشتاء. يحرص على ضبط حركاته حتى لا يوقظ سكان الدار الكبيرة. يمرّ على مسجد مولاي ادريس ليصلي الفجر ويرتل ما تيسر من الذكر الحكيم قبل أن يلتحق بـ«الدّرَاز» وَرِثَ صنعة الحايك عن أبيه. وعمله لا يخضع للمقاييس المتداولة، بل لِحِرْصه المتأصّل على أن ينتج أكثر ما يمكن من الأمتار وبالجودة المعهودة. علاقة داخلية تشدّه إلى «لَمْرَمّة» و«النّزَق»، وإلى خيوط الصّابْرا وألوانها: أحمر، أزرق، أخضر، أصفر... تتشابك في اتساق وأُلفة لتنسج قماشا زاهي الألوان سيتلألأ فوق رؤوس النساء لَعْرُوبيّات وخصورهن. ألوان قوية هي امتداد لألوان الأشجار والزهور على ضفاف «واد فاس» الخصبة.

داخل الدراز، لاتهدأ الأيدي والأرجل عن الحركة، كما لاتكفّ الألسنة عن الكلام والتعليق والضحك. خلية واحدة من المعلمين والمتعلمين، وسباق تلقائي ضد عقارب الساعة. والطيب (سِيدْ الطيب، كما ينادونه) محور هذه الخلية، يحترمونه ويحبونه. وهو، بقامته المديدة وجسده الممتلىء، يقود الدراز في معركته اليومية ومنافسته للدرازات الأخرى: بين الشُّراة لاتُكْتَسَبُ السمعة إلا بالعمل المتقَن، والتنويع في التزويق وزواج الألوان.

عنـد أَذَانِ الظهر، يتوقفون عن العمل ويذهب أحد المتعلمين إلى البيت ليأتي بالغذاء. بعد الصلاة، يتحلقون ليأكلوا جماعة مواصلين الحديث.

كانت أحداث الحرب تستأثر باهتمامهم، فتختلط الزوايا واللقطات ابتداء من استعمال التمر عِوَضَ السكر لتناول الشاي، إلى تَنَاقُل الاعجاب بالألمان وهتلر وبالعلامة ذات الزوايا القائمة الأربع يرسمها الأطفال على

جدران الأزقّة: «.. الألمان أقوياء سيُخلصوننا من الفرنسيين وطغيانهم، وسيعيدون إلينا حريتنا، فيتحقق استقلالنا...».

لكن الموضوع الأثير لأصحاب الدراز، هو الاحتفال بالربيع والخروج إلى «النزاهة» بضواحي المدينة، والاستماع إلى الطرب وقصص ألف ليلة، وأكل ما لذَّ وطاب .. عادة مقدسة يتمُّ الاعداد لها قبل الأوان، وُيستدعى لها الأصدقاء، وتكون مناسبة للابتعاد عن الدراز المعتم المحبوس بين جدران ضيقة مُتداعية. تستقبلهم الجنانات المبثوتة على حافة أسوار فاس وبوّاباتها، ويغوصون في الخُضْرة مُنتشين بتغريدات الحَسَاسين والمقانين، وبنقرات العود وتأوهات المواويل.. تضحك النفس وتَنْتَعِشُ بعد الكدّ والعمل. والطيب في أوج البهجة بلقاء الربيع. يخلع العذار وهو يستمع الى قارىء ألف ليلة :

ـــ «ما عَندي ما نقول.. الله يبارك في عمر لاَلَّة.. هِيَ بْغَاتْ..
إيلا حبُّوك ارْتاحْ.. لالّة زُبيدة يا الاحْبابْ.. أنا عَبْد الزّينْ...»

لكن النَّهم للحياة وللمتعة يوازيه في نفس الطيب تَعلق بالأمداح النبوية وبالأشراف ومعاشرتهم. يحضر كثيراً من ليالي الأمداح ويُرتّل مع جوقة المنشدين. لا يتْعَبُ من التَّحيِيرَة والجذْبة.. هائماً يبدو بالطَّلعة السنِيَّة صوته الممتلىء ورأسه الحليق يُضْفِيان عليه هالةً آسرة. وليلةَ عُرسه الأول (كانت زوجته من أسرة الشرفاء) صَدَحتْ أصوات المادحين والمرتلين تَتناوبُ مع مقاطع الموسيقى الأندلسية. كان سيد الطيب في جِلبابه الأبيض مُورَّداً، زاهياً، مُنجذباً الى حلقة الأمداح، مُتغاضياً عن الأصول، رافعاً صوته بالغناء معهم: «عِشْقي فيك مُؤبَّد...». هل كان يعرف تلك التي سيتزوجها الليلة ؟

جميلة كانت في بياضها الحليبي، بِشَعرِها الفاحم وابتسامتها الطَّيْفيَّة. نُعومة متناهية. تمثال مُتناسق حتى كأنه يَنْتسب الى العالم الآخر. سعيداً

كان خلال أيام العرس السبعة ثم خلال السنتيْن اللتيْن عاشَهما مع عروسه قبل أن تنطفىء فجأة فيما يُشبه الومض.

بكى الطيب بصوته الجهوري ولحيته المشذبة وهيكله الفارع. رَجُلٌ يبكي وسط الجنازة غير مُبالٍ. تَفجَّرَ دون أن يُثنيَه تَصبير أو مواساة. ولن يحكي أبداً لأحد عن تجربة حبه مع عروسه الراحلة.

لم يكن يعرف أول الامر ما اذا كان هو العاقر أم زوجته. فَبَعْدَ مرور سنة على زواجهما، احتضَنَ ابن أُخته وأدْمَجه في حياته الخاصة. أضحى «الهادي» الطفل المدلل. وعندما رحلت لالة الغالية الى الرباط لتسكن مع ابنتها، احتفظ هو بالهادي. كان يعيش في نشوة الاكتمال بين زوجته التي أحبت ابن اخته حبّاً صميمياً، وبين عمله في الدراز وسهراته في المساجد وحلقات ترتيل الأمداح ...

تدخلُ الحربُ عامها الثالث والزوجة ــ الملاك تختفي، وتُنذر الأحوال بالبؤس والنَّكد. إلا أن سيدْ الطيب، الجذع الراسخ في تُربة المدينة العتيقة، لم يَنْكسر. لم يترك الرياح تَقتلع عروقه المتواصلة مع هذا العالم المحيط به، المتغلغل في أعماقه، وأُمُّه، الجدة، تهمس له ذات مساء بأن عليه أن يتزوّج من جديد.

ها إن العرس يملأ الدار ثانيةً بأنواره والبهجة كابِيَــةٌ ملامحها والزوجة الثانية من عائلة متوسطة ومن صِنْف آخر : العينان زرقاوان متحركتان، والشعر أشقر، والبشرة البيضاء مكسوة بطبقة من النَّمَش، والشخصية فائرة متدفقة حتى انعدام النعومة. كل شيء كان سيستعيد طعمه لولا أن الطفل الهادي أعلن الحرب على المرأة التي جاءت لتَحتَلّ، الى جانبه وجانب خاله في الفراش، موضع العروس الراحلة. والطيب موزّع، حائر بين الزوجة الجديدة القوية، وبين الهادي المالىء لفراغ البُنوّة، والحامل لرائحة الطيف المندثر. لا يستطيع أن يضربه وهو يستمع الى ما تنقله اليه زوجته من هجاءٍ مُرّ يتدفق به لسان الهادي عندما يتصدى لها ويتحدّى أوامرها ويَتَهَزَّأ عليها

أمام نساء الدار. يهدىء الطيب زوجته ويَعِدُها أنه سيؤدبه، ثم يستعطف الطفل عندما يخلو اليه ويقدم له الفلوس والهدايا مقابل إعلان السلام مع الزوجة الجديدة... لعبةٌ لن تنتهي إلاَّ بترحيل الهادي الى الرباط ليعيش مع أمه.

وقبل ذلك، أوْعَزَت الحرب لابن الأخت الكبيرة، الذي قطع أشواطاً في تحصيل العِلم بجامعة القرويين، أن يتحول إلى التجارة مُبْتدِئاً بِتَهريب الكتَّان والأقمشة من البيضاء إلى فاس، ليكسب، بسرعة، مالاً يُعوّض به ما ضاع لوالده من ثروة في السينغال. عرض ابن الأخت على سيدْ الطيب أن يساعده فيسافر معه هو والطفل الهادي لينقلوا الكتَّان ملفوفاً حول أجسادهم. وانْضاف إليهم أطفال آخرون من العائلة. كان ابن الأخت يُسَمِّطُهم بالقماش والكتان ويُمَدِّدُهم على رفوف الحقائب بالدرجة الرابعة للقطار في رحلاته الليلية. كان الكثيرون يفعلون نفس الشيء، وتواطؤٌ ضِمني يحمي اللعبة ويُفوت على المراقب اكتشافها. رحلات مربحة ومسلية ستكون مَقْفَزاً ينطلق منه ابن الاخت إلى دنيا المال والمتاجرة، ولا يلبث أن يغادر المدينة القديمة إلى ضواحيها المزهوة بِثَرائها الطارىء.. ويظل سكان الدار يرددون بِحسرةٍ واعتزاز معاً : «ربِّي فْتَح عليه.. بْنَى القْيلا في طريق إيموازر».

أما الطيب فسيظل، بعد الحرب، داخل الدراز، داخل البيت العتيق الكبير، داخل أزقة المدينة المتربة المعتمة المتواصلة كالشرايين، المتجددة عبر تَناسل سِرِّيٍّ متلاحق... يَنخر الزمن عوده خلسة، لكنه يثابر على العمل والمسجد ولعب الكارطة، وانتظار زيارات الهادي المنغمر في حياة أخرى بالرباط ثم خارج الحدود.

واحتداد الطَّبْع انْدَثَر، وترسبت في أعماقه دماثة متناهية، مروءة ممتزجة بدم عُروقِه كأنه لم يعرف سوْرَةَ النَّزوة وصهيل الشهوة. قطعة مُنْدَسَّة بين زليج هذا البيت صار، وَقِبْلةً لكل القاطنين. يعرف أنه عاقر،

www.lijlas.com/vb3
MALLOULI

غير أن حبَّه للزوجة الثانية، من خلال الأُلفة والتعوّد، أصبح أقوى من كل العواصف.

منطقة ظليلة هو، داخل هذا البيت الكبير.. يعيش الأفراح والملمَّات بقلبٍ يَسَعُ كل شيء، ولا يتعلق بغير الوجود الكُلي المعْرِض، مسبقاً، عن الآني الزَّائل.

إضـــــاءة

أحْبَبْنَاهُ أول الأمر من خلال صوته القوي ذي النبرة المقتحمة للنفس. يتحدث سيدْ الطيب دائماً بصوت مرتفع. نسمعه في غُرفنا، وتَصِلنا فكاهتُه وتعليقاته الظريفة. مع الأيام، وعندما توطدت الوشائج بأخته لالة الغالية، أصبحنا نعتبره أخاً أكبر، يُجالسنا أحياناًويُشاكِسُنا، لكنه دائماً يحترمنا. مثالٌ للصواب والأدب، يستَقْصي أخبارنا وأخبار عائلاتنا. ينصح ويُوجِّه. أزواجنا أيضاً يحبونه. يَسْتَدْعِيهم ويَحْتَفي بهم. أصبح هو ولالة الغالية، قبل ان تغادرنا، محور البيت الكبير.عِشنا فرحة زواجه الأول، وأمَضَّنا غيابُ العروس الناعمة الرقيقة. كأنما تغير شيء بأعماقه. لكنه حاضر دائماً. يتحدث ويَحْدبُ على أهل البيت.

بعد زواجه الثاني، انحسرتْ حميميّة العلاقات قليلاً. إلاَّ أن أهل الدار سرعان ما صهروا الزوجة الجديدة في طقوسهم اليومية. التعاطف يطوي كل النتوءات.

رحلت لالة الغالية الى الرباط وصحبتْ معها ابنها الأكبر «الطايع» وتركتْ الهادي يعيشُ مع خاله سيد الطيب. لم نر مثل حبه لذلك الطفل النحيل، العنيف الحركة واللّسان. زوجته الأولى كانت أيضاً تُدَلِّلُه وتعبده. بعد موتها أعْلَنَ الهادي الحرب على امرأة خاله الثانية.. مشهد يكاد يتكرر كل يوم :

يعود الهادي من المدرسة في الحادية عشرة، تُقدم له زوجة خاله كأس

حليب وقطعة غْرِيْبَة. يطالب بالمزيد محتدّاً. ترفض أن تُلبي طلبه إلاّ اذا بَاسَها. يَنْفلتُ إلى الباب وهو يصيح :

ـــ بَعّدِي منّي أهادْ عْيُون القطة

ترد عليـــه :

ـــ كِيْتَكْ وَخْلاَدَارِكْ أبُو سْلُوَفان. دابا تْشُوف؛ والله وَقْبَضتك حتى نَتْفَكْ. بَرْبَشْ وقَرَّب لَهْنَا.

ـــ أعَيْنِينْ القطة، أشَعْكَاكَة النَّصَارى.

تَنْقَهِرُ المسكينة وتتوجّه إلينا بالحديث :

ـــ شَهْدوا بَعْدَا على هاد السَّلْكُوط.. إيلا جا حبيبُو قُولُولُو على هاد الشيء اللي تيعمل معايا. تيْقول أنا اللي تَنْظَلْمُو ...

لم يكن سيدْ الطيب يغضب إلاّ عندما يتعلق الأمر بالهادي. كان يُحبه ويحب أخته من خلاله، ولم يكن يطيق العيش بدونه. نحن اللاّئي أقنعنا لالة الغالية بأن تستعيد ابنها حتى لاتظل حياة الطيب جحيما مستعرا. فكانت هذه انكسارة أخرى انضافت إلى جرح سيد الطيب العميق المتولّد من اختفاء زوجته الأولى.

أزواجنا وأولادنا يحبونه ويعجبون بشخصيته وحسن معاملته للجيران. أيضا، وهذا ما كانوا يشيرون إليه من وراء حجاب، كانوا مُعجبين بمغامراته وإقباله على الحياة. أحيانا يُرجعون ذلك إلى سفراته للدار البيضاء أثناء الحرب وحصوله على بعض المال من وراء مساعدته لابن أخته الكبيرة لالة عايشة. وأحيانا يعزون ذلك إلى تغييره المؤقت لِلْمهنة حينما أصبح بائعا للثياب في حانوت عمّرها له ابن أخته بحيّ فاس الجديد... آنئذ استطاب «لالّة وْمالي»، وكرع كؤوس المتْعة وسهرات الملحون والأندلسي. رجل فَحْل، طريّ الحديث. كُنا بدورنا نَتجَذِبُ إليه،لكنه لايُشعرنا بغير الأخوة. لانغضب ولا ننفر منه لأنه يُبيح لنفسه اختلاس لحظات الزْهُو بعيدا عن زوجته النحيلة الصهباء ذات اللسان العقْرب. قالوا إنه انْغَرَم بامرأة يهودية

ممتلئة الأرداف، خمرية البشرة والعيون، كانت من زَبُونات الحانوت قبل أن يُنْفق عليها الربح ثم «يطُبّ» في رأس المال.

بعد أن أخذ يَحْبو فوق الخمسين، غدا أكثر استقرارا وحضورا داخل البيت. عاد إلى مهنته الأولى، وجعل يُداوم المسجد وحلقات الذّكر والأمداح، ويستدعي أصدقاءه للعبة الكارطة. صوته يجلجل غاضبا عندما يرتكب شريكه في اللعب خطأ، لأنه لا يقبل أن يغلبه أحد في لعبة «التريسْ». يكون في أوج السعادة عندما تحضر لالة الغالية وابنها الهادي لزيارته من الرباط. كل زيارة تكون احتفالا يغمر جميع سكان البيت. يعود إلى سيد الطيب حِسّ البَسْط وتَفْراق اللّغا. يستفسر عن الشاذة والفاذّة. يشاكس الهادي وهو يسأله عن أخبار البلاد البعيدة التي يدرس فيها: هل انتقيت عروستك ؟ متى سنفرح بك ؟

يبدو سيد الطيب، عندئذ، سارية مركزية في هذه الدار الكبيرة.نُحِسّ بذلك أكثر عندما يتغيّب مرة في السنة، هو وزوجته، لزيارة أخته وبعض أفراد عائلته المقيمين بالرباط. تتردّد على ألْسِنَتنا ونحن نتحادثُ بصوت مرتفع، كما اعتدْنا، عبارات الافتقاد:

« – والله إيلا سيد الطيب وامراتو خلاّوْ الفايْجا. توحّشناهم هاذْ المرّه طَوْلُو الغيبة...»

كان يمرض من حين لآخر. لكن بنيته القوية تُسعفه على استعادة عافيته. لا يُفرط في الأكل. علاقة غريبة بينه وبين الأطباق الأصيلة التي يسميها «الشْهِيوات» ويعتبرها أساسية في وجبات الغذاء. لا يَدّخر شيئا عندما يتعلق الأمر بالأكل، ولا يحب أن يأكل وحده مع زوجته بدون أن يستدعي أحدا. يُدَلل كل من يمرض في البيت الكبير. أصبح مِلْحا لازما لحياتنا اليومية. بحُضوره لم نكن نحس فقْرنا أو حرماننا.

عندما ظهر التلفزيون، سارع إلى شراء جهاز وأخذ يدعونا إلى

مشاهدة الأفلام والسهرات. كنّا نفرح لأننا سنتحلّق حول سيد الطيب نحن وأزواجنا.نضحك. نتسلى. وقاطرة الحياة تغدو محتملة بالرغم من ثقلها ورتابتها. وهو، منتصب الجذع حتى بعد أن تَخَطّى سن السبعين.

تُذكّروننا بأنه الآن اختفى ؟

نحن لانستطيع أن نتحدث عن موته. نسْمع، ما نزال، صوته الجهوري:

« – أَمَالينْ الفوقي هَبْطو خلاص.. السهرة غادي تَبْدا.».

عَوّدَنا سيد الطيب على كَرمه المتجدّد.

تعتيـــــم:

هل أبدا بوصف نهايتك ؟ أم هي بدايتك الحقيقية ربّما ؟

تضريسا جميلا كنت أجدك وأهفو إليك وسط الدوّامة المذهلة المرعبة. أراك فتتزاحم كل صور ما قبل تاريخي:

www.liilas.com/vb3

الأعراس، وأسمار النزَاهاتْ، وأفراح عشيرة الدار الكبيرة، ونشوة البذل من قلبك المعطاء.

MALLOULI

وصلتُ متأخرا ذلك اليوم.

كانوا قد انتهوا من تغسيل جسدك، ووضعوك داخل الكفن الأبيض ومن حولك أربعة فقهاء يرتلون القُرآن :

«... الذي خلق الموت والحياة لِيَبْلُوَكُمْ أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور. الذي خلق سبع سماوات طباقا، ما ترى في خلق الرحمان من تفاوت. فارجع البصر هل ترى من فُطور. ثم ارجع البصر كَرَّتيْن ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير...».

لن أرى، لآخر مرة، تلك البسمة التي كانت لُغَتك الخاصة معي. ولن أرى الوجه المدوّر، الممتلىء، الطافح أبدا بالحيوية والقوة.. ذَبُل الجسد وظل الوجه شامخا مكتسحاً. وهم الآن يرُشُّون الطيب على كفنك، ويُنْهون

ربط ملتقى القدمين. وشفتاي تَتْلوان أيضا مع المُرتلين.

لا أكاد أسمع نشيج الباكين في الباحة الواسعة. كلهم أحبوك. أنت تعلم ذلك وتأكدت منه أثناء ما كنت طريح الفراش. وأنا أحاول، عبثا، أن أستوعب معنى أن تكون مُمدّدا أمامي داخل الكفن مَيّتا مُنتهيا وراحلا عنا.. وقبل خمس سنوات كنت تَشْهَقُ إلى جانبي كالطفل الملدوغ أمام جثة لالة الغالية أمنا. هل أمدّ يدي لأُفكّ عنك لثام الكتان الأبيض السميك لِيُطالعني وجهك الصبوح، ومن يدري قد تتفتح العينان ويَفْتَرّ الثغر ؟

سيحُولون بيني وبين ذلك، أعلم. لكنه فعل يناسب هذا العبث الذي يكتسحُني وأنا أراك منطفئا هامدا مُغيّبا وراء الكفن الأبيض. الأصوات تعلو. صليلُ سطول فارغة دُحْرِجت بضربة قدم، والمِغْسل يوضع بِمُحاذاة الجدار، وصوت الغسّال يأمر بإخلاء الغرفة ونحن نتململ في حركات آلية والدموع في المآقي، وتبادل التعازي، والأطفال المبثوتون بين الأرجل أو في الأركان ينظرون بذهول... الوافدون كُثُر، ولسانهم لايفتر عن الترديد: «عزاؤنا واحد»، وجنازتك أشبه ما تكون بالعرس: فالمسمّعون والمادحون اعتبروك واحدا منهم وجاؤوا لِيَخُصّوك بهذه «العْمارة» المزدهية الشّعر والكلمات. كلنا متحلقون حول جسدك الملفوف في الكفن الأبيض، الممدّد وسط الدار إلى جانب الخصّة المُلجمة... يُرتلون القرآن ثم ينشدون الأمداح، وذو الصوت الجميل يصدح كأنما يُناجيك، والنشوة تتسلّل إلى مشاعر العبث في دخيلتي لتُبدّدها.. أنت مُنْتش داخل كَفَنك كما أُخمن: تحب هذه الكلمات وما تنسجه من عوالم علوية. نصغي ونُصيخُ السمع وننسى أنك راحل وإلى الأبد.

يقف المتحلقون حولك ليجْذبوا، وَنَثِيث المطر يرشُّ رؤوسنا ويرش النعش الذي احتواك...

أيها الطيب ذو القلب الكريم هل تسمعنا ؟ هل تسمع الأصوات التي تَتَناسى اللوعة والبكاء ؟

www.lijlas.com/yb3
MALLOULI

وحينما جَثَونا لنرفع التابوت ونرافقك إلى المسجد فالمقبرة تَعَالى نَحيبُ النساء حادّاً مُوجعاً، لكن أصوات أصدقائك تعلو بالوداع الفَرِحِ الجذلان :

سبحان ذي المُلك والملكوت
سبحان ذي العزة والجبروت
سبحان الحي الـذي لا يمـوت
سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ ربُّ الملائكة والروح ...

والأصوات تتصادى بين جدران الأزقة المتقاربة والمارة يفسحون الطريق للموكب الذي سيَزُفُّك عريساً للجنَّة كما كان يردد الذين عرفوك.

ثلاثون سنة منذ أن رحلت عنك وعن الدار الكبيرة. كنت مزوّداً بذخيرة لا تنفد من الثقة بالنفس والجسارة وحب المغامرة. أبداً لم تقمع رغائب طفولتي ولو كانت رعناء. وبذلك الحب الكثير أحسني قادراً على كل شيء. عالم آخر استقبلني. تجارب معقدة قطعتْ حبل السُّرّة الرابط بيني وبين كَوْن الطفولة والأحلام. لكنني وأنا أعود إلى زيارتك، في كل مرة، تَتَبَّخر السنوات الثلاثون وتتلاشى التصورات والأوهام فأعود طفلاً يحبو على مَدْرَج الصَّبَواتِ،وتُطل النفس المكتفية بزمنها الأول الممتلىء. أجد الباب دوماً مفتوحاً، ووجوه النساء والأطفال طافحة بالبِشر والرضى، وأنتَ في صدر الغرفة بِجلبابك وطربوشك تنظر إلى الباحة أو تتحدث مع زوجتك أو مع أحد من سكان الدار. تُعانقني فَتنحلّ العقد المتكوِّمه في سريرتي. تتلاشى التساؤلات وهواجس الخوف. أستَغْني عن الكلام الطويل باللغة البسيطة الفَكِيهَة البليغة تندفع من شفتيك. كيف تُفْصَل اللغة عن مُتَلفِّظيها؟ كيف اقاوم سحر هذا السياق المنغرس في الذاكرة والجدران والوجوه؟

«إيِّيهْ.. تَنْشُوفهم. جَاوْ تعشَّاوْ معنا هذي واحد اليُومِيْن. لاَلَّة مِينَة صَحّتْها مْطَبْبَة، وَهَمّ لَبْنَات تَيكمَّل عليها. إيَوا وعبد العزيز تَيَقْضي حاجة في ذِيك الَحْوِينْتَة. الوقت صْعَابْ كل شيء غْلاَ وما بْقى حدّ تَيَقْنَع. حتى

السكَّر زادوا فيه وحَلْفُوا ما يْنَقْصُو منه. هذا هو الاستقلال اللّي كُنا نَتْرجَّاوْ بركْتُو.. إيوا نْسَقْسِيوَكْ انت اللّي قاري وفَاهَمْ آشْ جَابَنَّا هاذ الاستقلال؟...»

تَلتفتُ نحوي وأنت تضحك من خَلَلِ هَسْهَسةٍ تكتم الصوت، مُغمضاً عينيك، مسروراً بأن تُشاكِسَني.. يضيع صوتي ويفقد معناه. أُوثِر أن أستمع إليك، أن أظل مستسلماً لسطوة الكلمة المنطلقة من فمك :

«... سّي سلاَّم تيسقسي عليك ... عرفتيه؟ ها ذاك اللّي قْتَل خاهْ على باكورة. دايماً مسكين تيقول لي أشخْبَارْ الاستاذ. تَيْخصنا شي مرة نْدُوز أنا واياك نْشُوفوه. حتى هو تَيعَدِّي. الناس كلها تْقَهْرَت. ما بقاتْ بركة، والغش على عيْنيك أبَنْ عدِّي. الحليب نَصُّو ماء، والزبدة الطرية تْفَتّش عليها بِالريق الناشف ما تَلْقَهاش. عْيَاوْ ما يكتبو في الجرائد ويْخَطبُوا في الجَوامع.. على مَنْ تَتَقْرا زابورك أداوود؟...»

أراك بِعين الطفل المبهور تدقُّ الباب البرانية وتصيح بِنا لنُسارع إلى رفع المزلاج. وفي الداخل تكوم أهل الدار كلهم في السُّفْلي خوفاً من أن تَقْتَنِصَهُمْ رصاصة طائشة تتسلّل من السطوح حيث يَقبَعُ جنود سينغاليون يراقبون المدينة القديمة المتمردة. الحربُ توشك على نهايتها وهَبَّةُ الوطنيين ساخنة سارية في الأزقة والدروب وفي شرايين الناس. كنت عائداً لِتَوِّك من مسجد القرويين حيث ظَلِلْتُم محاصرين منذ الصباح تقرأُون اللطيف احتجاجاً على العسف والاعتقالات.. نحن ننتظر أوْبَتَكَ بخوف وقلق، وعائلات مالين الفوقي نزلت الى السفلي بعد أن لعلعت فوق رؤوسهم رصاصة مخترقة دفَّة إحدى الأبواب. الهلع يَرِينُ ولا يُخفّفه سوى صوت النساء والرجال الذين يرتلون اللّطيف. تَنْدفع وتغلق الأبواب وراءك ووجهك ابيَضَّ من الوجل والانفعال. يهرع سكان الدار نحوك. تقول بصوتك الجهوري :

«صافي.. ذبحوا ''لاَسُورْتي''.. ذبحوا البيَّاع اسماعيل. كَرْجوا له ذبحة من لَوْذَن حتى لَوْذَن. لَهلاَ يرد بَابَاهْ. ما حْشَمْ ما استحيا، دخل باش يْعَبّي الاخبار لاَسْيادُوا الفرنسويين...»

تتدفَّق الكلمات سريعة من شِدْقَيْكَ وأبصارنا مسمَّرة في وجهك : نُتابع التفاصيل ونتخيّل المشهد العنيف. وَدِدْتُ في قرارة نفسي لو أنك صَحِبْتني معك لأتيه على بقية الأطفال وأنا أسرد عليهم الحدَثَ المثير. طالما ستُذكرني بهذه الحادثة التي تقول عنها بِلُغَتك : «عَيْطة الوطنيين في ربعة وربعين». تَبتدع الكلمات بتلقائية فتتضاءل وقائع السرديات أمامها. لا أمَلُّ من الاستماع إليك تَقُصُّ وتُلوِّن الأشياء والشخوص. تحكي فَتَنْتَسِج بيني وبين هذا المحيط السحري، عبر كلماتك، وشائج مستقرَّة في المسامِّ. وخلال رحلتي بعيداً عنك، في تَوَاصلي مع الناس والعوالم، لا تغيب كلماتك المبتدعة عن ذاكرتي : الكلمات قبل الأشياء.

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

قال راوي الرُّواة :

الذين حدثوكم عن سيدْ الطيَّب عرفوه في فترات طالتْ أو قصرت. وهم يحاولون أن يستعيدوا ذكريات وملامح وأقوالاً مشتركة معه. يفعلون ذلك بهاجس فَهْم شخصيته.. قد لا تكون كلمة ''فهم'' هي المقصود لأننا، في النهاية، لا نفهم مَنْ نُعايشهم، وبالأخص لا نفهم مَنْ نُحبّهم.. إنما نكوِّن عنهم صورة تَتناسل وتتمايز عبر التلوينات التي تُضفِيها الذاكرة كلما تَباعدت مسافة اللقاء بهم.

وكما يبدو لي، ولأنني عرفت الذين حدثونا عن سيدْ الطيب، فإن جانباً ''جوهرياً'' (أتهيّبُ من هذه الكلمة لكنني أستعملها مؤقتاً وأعرف أنها ستصبح دائمة...) من شخصيته ظل غائباً، أو بالأحرى، ممتنعاً عن الاستحضار.. أقصد ــ وأنا أعرف أن ذلك لم يغبْ عن فطنتكم ــ تلك العلاقة بين سيد الطيب وبين نفسه، بينه وبين جسده، ومع الأشياء.. فنحن

ـــ الرواة جميعاً ـــ عرفناه من خلال تصرفاته، أقواله، وعبر الصورة التي كوّنها عنه الآخرون وربما التي كوَّنها هو عن نفسه من خلال الناس.

أحياناً، أخوضُ في «تفسير» سيد الطيب مستعملاً الأبعاد الفيزيولوجية والاجتماعية والدينية.. لأعثر على خيْطٍ يَنتَظم تلك المشاهد والمراحل ويحتوي التناقضات... ثم، فجأة، يَنْتَصِبُ أمامي داخل إطار أحياء فاس القديمة، وداخل الدار الكبيرة، بِجسدِه الفارع الممتلىء، بكلماته وصمته، فتهتزُّ كل التفسيرات. وتهتزُّ أكثر عندما أقارن بين هذه الصورة وبين صورته في الرباط أو البيضاء حينما كان يزور بعض الاقارب والأحباب : خارج فاس كان يبدو ''متقلصاً'' (هل هذه هي الكلمة المناسبة؟).. كان يفقد الكثير من حضوره، بل من وَقَاحَتِه : أعني التصرف وكأنه يمتلك مَنْ ومَا حوله، ثم وكأنه مملوك بدوره.. «يكون رافعاً الكلفة مع الحياة» ربما هذا تعبير أدق. أو أقول مستعملاً تعبيراً مستوحى من أحد الكتاب، بأن سيد الطيب داخل فاس كان يساعد الأشياء على ان توجد، ولم يكن يحس نحوها باحتقار.

أورد هنا ـــ أليس ذلك من حقي أنا راوي الرواة ؟ ـــ ما سجله الكاتب في مسودّته عن سيد الطيب على لسان الهادي :

«مرة، في الرباط، تجولت معه داخل الأحياء العصرية وجلسنا بأحد المقاهي، وتحدثنا في اشياء مختلفة.. كان ينصت وأحياناً يُعلق، لكنه كان يبدو كأنه يكتشف عالماً يجهله أولا يحرص على ان يعرفه. وفي نفس الوقت، عندما يحكي، كان العالم الخارجي الفسيح، كما يتبدّى في الرباط، يُربِكُ حَكْيَه. هنا، خارج مدينته، بدا لي متعثراً فأخذت استحضر بعض ما عشته معه في الطفولة ليسترجع حكيه المعتاد...»

بعد عدة صفحات يحكي فيها الهادي عن زياراته لسيد الطيب خلال السنوات الأخيرة السابقة لموته، تأتي هذه الفقرة :

«... يمكن أن أتَلَكَأ أكثر مُستحثاً ذاكرتي على تقديم لقطات أخرى

عن سيد الطيب الذي أشعر، بغموض، أن ما رَوَيْتُـهُ عنه، وما يمكن أن يُروى عنه، غير كافٍ.. لكنني الآن أنْتبه إلى أن كل هذا التلكؤ إنما ألجأُ إليه لأُموّه على نفسي حقيقة كونه قد مات.»

أستشعر أن بين الهادي والكاتب أشياء كثيرة يمكن أن أعيد سردها وأن أُرتبها على لسان الرواة لأطيل جلسة استحضار ما أظنُّه باقياً في أعماقهما، لكن بدون أن يتحول الموت من طقسٍ الى حقيقة. ما دام الهادي يخرج من اللعبة ليذكرنا بالحقيقة التي تهدُّ ما سردناُه مواربةً، فإنه يُعوض حَكْيَنَـا بصمت الموت.

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

ما قبل تاريخنا

تخطّى العقد الثالث من عمره، ومع ذلك يبدو ممتلئا بطفولته. لا يفصل الفترات والمراحل واللحظات. يحرص على ان يجعل الديمومة واحدة، متواصلة، ولو أنه في لحظات القلق والحصر يستشعر تفتُّتاً كاسحاً يُحيله إلى ذرات. أين لحظة البدء؟ ومتى ينتصب الحاضر؟

إنه ما يزال يحتفظ بالكثير ممّا لاَزَمَهُ منذ أن وَعَى بكورة الطفولة في أبعد تذكُّرات الارتداد إلى الماضي. وحين يفكر في كل ذلك، لا يجد ما يستحصده سوى القول بأن الطفولة حاضرة فينا حضور الدم في الشرايين، وأن الغالب على الظن أن كل الناس ـــ مثله فيما يخيل إليه ـــ سيُغمضون عيونهم، عند الاحتضار، على لحظة أو مشاهد من الطفولة المحفورة في الخلايا والمسامّ.

عُرِفَ عنه أنه كان طفلاً مدلّلاً، مشاكساً، انتقل في سنة عمره الأولى أو الثانية، الى رعاية خاله سيد الطيب وزوجته الجميلة الأولى، لأنهما كانا عاقريْن. له، إذن، أن يشتهي، وعليهما أن يُلبيا رغائبه ونزواته. ولا أحد في البيت الكبير يحقُّ له أن يُغضب الهادي أو أن يزجره. حتى أمه لالّة الغالية لم يعد مسموحاً لها أن تؤدبه أو تنهره. كل الألسنة تلهج باسمه وتُغدق عليه الهدايا والتدليل، لأن مكانة سيد الطيب في قلوب ساكني الدار الكبيرة، لا يعلو عليها شيء، ولأن الهادي، وهو ينمو، يبذر من حوله نكهة الحيوية والشيطنة وسط عائلات جُلُّ نصيبها من البنات.

وستكون أُولى شارات التميُّز لدى الهادي الطفل، إرسال شَعَر رأسه : لَفْريزي موضة طارئة وَفَدَت مع المعمرين القادمين من وراء البحر. حتى

أخوه الطايع، لم يحظ، أول الأمر، بِإكليل الشعر الذي يُضفي على الوجه ملامح تناسُقٍ وتجميل. وخلال ساعات لعب أطفال الدار وبناتها، يصبح الهادي مركز اهتمام البنات، لأن لَفْريزي تَيْهَبَّلْ، تَيْحمَّقْ، وهن يعشقن أصحاب الرؤوس المكسوة بالشعر، الحاملة لأمارات العصر. وكثيراً ما يُحاصِرْنَه في إحدى زوايا الغرفة، ليُقبّلن قفاه ويعبَثْن بشعره. بداية مُغرية ومسلية. وسيظل، على امتداد الأيام، مُنجذباً الى الحضور النّسوي الغنيّ بِالسحر والفتون.

في ليالي الصيف، تزهو سطوح فاس. تنتعش النفوس من هبَّات النسيم، وتنسى شُواظ النهار، فيكون للأطفال والأولاد موعد مع السهر فوق السطوح يحرسون ''الخليع''، ويتبادلون المشاكسات والغَزل والقُبل، قبل أن يَهُدَّهم التعب فينامون متداخلين تحت شطائر القِدّيد المنشور على الحبال. والسطح امتداد ضروري للدار الفاسية. إنه رئتها التي تتنفس منها. الشرفة التي تنظر منها إلى السماء، إلى الجيران، وإلى ما يجري أُفُقيا، كاشفا عن خبايا الغُرف المعتمة.

من السطح، كان الهادي وبعض أطفال الدار يتلصّصون على «حمَّان لْكَابران» الساكن ببيت صغير لصق دارهم. كانوا يُطلون عبر الشباك الحديدي الموضوع على امتداد باحة منزل الجارالمِزْواج، لِيَرَوْه وهو يضرب زوجاته الثلاث، فيما يحاول أن يفضّ النّزاع بينهن. حمان لكابرانْ شارك في حرب الهند الصينية، وعُطب في رجله، فعاد ليتابع المعركة في حومة النساء ! كانت شواربه كثيفة، ولهجته غْروبية، وعيناه غائرتيْن.. وحين فاجأ الهادي ومنْ معه من الأطفال والبنات وهم يتابعون من فوق السطح عراكه مع زوجاته، رفع العصا باتجاههم وأخذ يصيح :

– أولاد الزنا، أقْلال الحيا.. الله ينعل اللّي رَبَّاكُمْ.

واكتشف الهادي، ذات يوم، أن السطح يفضي إلى سطح منزل

قريب، به دالية، عناقيدها تُثمر عنبا شهيا؛ فكان يتسلل إلى الدالية بعد الغذاء عندما يهجع سكان الدار للاستمتاع بتعسيلة القيلولة. لكنه في المرة الثالثة، فوجيء بيد نسوية تمتدّ لتمسك بذراعه، بعد أن اختبأت صاحبتها وراء تجويفة بين جدرايْن. وضعت أصبعها على فمها آمرة بالسكوت ثم أخذت تبتسم. جميلة كانت، ولو أن صرامة تعلو ملامحها، تُضفي عليها تعبيرا بْرونزيا يضاعفه بياضُها المفرط. لم يفهم الهادي، أول الأمر، ما تريد به الفتاة القابضة على ذراعه والمبتسمة في خبث. إلاّ أنها جذبته نحوها وأخذت تقبله، ثم أدارت نحوها قفاه وجعلت تضغط عليها بشفتيها في نَهَم ولوعة يفوقان ما كان يصدر عن بنات الدار الكبيرة. قالت له بعد أن طالت مداعبتها، وَرَاوَدَهُ الخوف:

«تعال متى شئت، فسأتركك تقطف كل العنب الذي تريده».

لكن الهادي لم يعد إلى دالية الجارة، لأنه علم أنها ابنة أحد فقهاء الحومة المتزمتين، تعيش بمفردها مع والدها بعد أن ماتت أمها. وكانت لهذا البيت رهبة منفّرة بين أطفال الحومة.

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

في المدرسة (كانت «مسيدا» حوله صاحبه الفقيه عالم القرويين، إلى مدرسة) وجد الهادي مجالا أوسع لتجريب شيطنته وذكائه. دار كبيرة استُبْدلت طاولات خشبية بِحُصرِها، وُضِعت في غرف السفْلي. أما الفوقي فيسكنه الفقيه، المدير الصارم. وكثيرا ما يصهل من وراء الدربوز موجّها الأوامر إلى من يتلكأون أو يتباطأون عن الدرس. الجلباب والعمامة، والنظارات الطبية السميكة، والتّنفيحة ينشقها في كل حين، والمنديل الأحمر المنقّط بنُقط بيضاء.. وهيْبتُه تسبقه، فيتلبّد التلاميذ في أماكنهم عندما يلمحونه آتيا للقيام بجولاته التفقُّدية التي لا تنقطع. أحيانا يكون مزاجه رائقا فيتبسّط مع المجدّين، ويسمح بلعب الكرة خلال استراحة بعد الظهر. عندئذ، تنقلب الباحة إلى ملعب يغصّ بالرؤوس الصغيرة وهي ممسكة بجلابيبها بين أسنانها، جارية وراء كرة الشراويط. قد يصل عدد كل فريق

إلى عشرين نفرا، والباقون مكدسون على الجوانب يصيحون ويشجعون. يتحرك اللاّعبون جماعات جماعات، ويتعاركون لاستخراج الكرة من بين الأرجل المتشابكة. وكثيرا ما تسقط الكرة في صحنِ نافورة وسط الدار، فتبتل وتبدأ تترك بصماتها على الجزء الأعلى الأبيض من سواري الدار. والحكم ضائع قلما يأتمر اللاّعبون لما تميله صفارته. والهادي يعشق كره القدم، يلعبها ويحرص على مشاهدة مبارياتها. دائما يتعلق بابن خالته الأكبر ليصحبه إلى ملعب «باب الساكما»، خاصة إذا كانت المباراة بين فريق العدوة، وفريق فاس الجديد. سرعان ما حفظ أسماء أهم اللاعبين: طانطان، كوسكوس، المنجرة (حارس المرمى)، عبد اللطيف، حميدة... وعندما ينتصر فريق العدوة الذي يناصره الهادي وابن خالته، فإن على أطفال المدينة القديمة وشبانها أن يفروا بِجُلودهم قبل ان يتعرضوا لانتقام شباب فاس الجديد. كُلٌّ وَرِجْلاه، واللقاء عند باب الجلود.

لكن أثر هذه المدرسة كان يتعدى مجال اللعب وصداقة التلاميذ إلى تنبيه حس وطني خاص، لأن مديرها كان منضويا في الحركة الوطنية، «والزعيم» هو الذي أوعز له أن يحولها من كُتاب إلى مدرسة. وفي نهاية السنة، تقام حفلة اناشيد وخُطب وتمثيليات، يحضرها الزعيم الوطني بوجهه المدور، وعينيه الخضراوين ورزّته البيضاء، فتعلو الهتافات والزغاريد، ويرفع هو يده راسماً علامة النصر.. كانت الحرب قد وضعت اوزارها، وفاس مشتعلة حماساً وافتخاراً لانها قاومت جنود الاحتلال وأعربت جهاراً عن رغبة المواطنين في الاستقلال. وقد اختزنت ذاكرة الهادي، منذ تلك الفترة، ذخيرة من الكلمات والقصائد، والتَهَبَ وجدانُه بالحب لكل ما له إيقاع يتجاوب مع ما استقّر في لاَوَعْيه من محفوظات وذكرياتٍ عن تلك الحقبة.

طفولة متشابكة لا يمكن تجزئتها الى فترات ولحظات متمايزة. لكنه عندما يفكر فيها الآن، تقفز الى ذهنه بعض تلك المشاهد فيحار في تحديد ثقلها. هل ما يزال يحمل منها أشياء فاعلة في الحنايا؟ هل يمكن ان يُرجع الى واقعة معينة تأثيراً خاصاً؟ أم أن الاحداث والوقائع والكلمات تتمازج

قبل أن تستحيل الى خبرة وغريزة واقعية؟

يذكر باستمرار البنت الملثّمة التي ضحكت عليه وانتزعت منه جلابية «لْمَلْف» الجديدة. كان واقفاً عند الباب البرانية يتفّرج على الغادين والرائحين ومنتظراً عودة خاله من الدراز ليتناول معه الغذاء. اقتربتْ منه بلطف كبير وسألته عن اسم المدرسة التي يتعلم فيها. أجابها باعتزاز :

ــ المعهد الاسلامي بزقاق البغل.

إنها مدرسة معروفة أجابت، ثم مدَّت له «قَرْطاس» البون بون الامريكي، مضيفة بأن لها ابنَ أخ تريد أن تُلحقه بهذه المدرسة ليترافق معه، وأن أباه يعمل مع الامريكان ويحمل له عُلباً كثيرة من الحلوى.. سيُعجبك ولا شك إذا رأيته. هل يمكنك أن تذهب معي لتتعرف عليه وتتفق معه على الساعة التي يرافقك فيها الى المدرسة؟ إن بيتنا قريب... وتُمسكه من يده ولسانها لا يتوقف لحظة عن حديث الاغراء، وعن توجيه الاسئلة، وهو معتز بأن يُجيب البنت الملثمة وقد سرح خياله مع هذه «الهمزة» التي نزلتْ من السماء، والتي ستجعله يشبع من الملبَّس الامريكي ذي القرطاس المزوق بالاحمر والاخضر والاصفر، ضالّةِ الاطفال حينذاك. لسانُها لا يتوقف عن الحكي، وكلما قال لها ابتعدنا كثيراً عن الدار وأهلي سيتَهَوَّلون عليّ، طَمْأنَتْه بأنهما، وَصَلا، وأن لم يعد يفرقهما عن منزل ابن أخيها سوى زقاق أو زُقاقيْن. وبعد أن اخترقا سوق الرصيف، وعرجا على القنطرة وعلى رْحَبة التبنْ والقلْقْليين، ظهر باب الحديد، فبدأ قصب الجنانات يلوح، وأحس الهادي أن المسافة طالت فتوقف عن المشي . بحركة سريعة، أخرجت البنت الملثمة قرطاسيْن من الحلوى مدّتهما إليه وهي تشير إلى أول جنان يقع على يمينها: هذا هو بيتنا لقد وصلنا. وجذبته من يده. كان باب الجنان موحشا، وما أن خطوا بضع خطوات ووصلا إلى قنطرة خشبية صغيرة تصل بين حافتي الواد، حتى توقفت البنت الملثمة وأمسكت بذراعه في خشونة آمرة إياه أن ينزع الجلابية. بدأ يبكي فنهرته مهددة بأن ترميه في الواد.

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

الوجه الوديع المرصع بثقوب الجدري بداله، الآن، من تحت اللثام الشفاف، مخيفا بنظراته الحادة المتطاير شررها من عينيْن ضيقتين. خلع الجلابية وهو يبكي. اختطفتها وتابعت طريقها متوغلة داخل الجنان بعد أن أمرته بأن يعود. لم يكد يصدق أنه نجا. وضع بلغته تحت إبْطه وأخذ يجري وهو يشهق بالبكاء وعندما وصل إلى الدار الكبيرة كانت القيامة قايمة، والبحث عنه جاريا على قدم وساق. وكانت أول مرة يدخل فيها إلى كوميسارية حي النجارين، صحبه خاله، ليحكي لعميد الشرطة عن أوصاف البنت الملثمة، السارقة... حادثة لن ينساها، علمته أن يكون حذرا متنبّها للحيل وأساليب الخداع. وعندما يدرك أن أحدا يريد أن يخدعه وأن ذلك الخداع سيُسعده، فإنه يسعفه متظاهرا بالسذاجة. لعبة مزدوجة. وكلما فكر في الفتاة الملثمة تلك، استعاد الحادثة بنوع من الغبطة والحنين.

أحياناً، لا يتبقى في نفسه، من طفولته، سوى شريط المعارك التي كانت تدور بين الحومات. كان عنصراً نشيطاً فيها. يتزعم ويُحرِّض.يَلُمُّ من حوله الأولاد ويُدّبر لهم العصي والأحزمة الجلدية والحجارة. حومة سيدي موسى لا بد أن تنتصر، وأن يذيع صيتها ليضمن أولادها الاحترام والتقدير. والصراع لا يهدأ : ما لم تتكفل به مبارياتُ كرة القدم في فسحة «درب الغُربة» أو في زقاق «تحت الحمَّام»، تَحسمه هجمات الليل والانقضاض على الخصوم الجالسين تحت المصابيح يتسامرون وكثيراً ما يسيل الدّم، فالعنف لا حدّ له. وهو الى الآن يحمل نُدباً فوق حاجبه الايمن لأن حجارة أصابته خلال إحدى المعارك، فَتَدفَّق الدمُ كنافورة صغيرة، واستولى الرعب على أصحابه فسارع أحدهم إلى إحضار الفلفلة السودانية وحَشَا بها الجرح، والهادي يصرخ ويتلوى خائفاً من أن يفقد عينه. حرب عصابات بين الدروب، والليل مرتعُ الاولاد. يتنادون كل مساء، والأزقة المعتمة أو النصف ــ مضيئة لا تكفّ حركتُها. السابلة يُميز بعضهم بعضاً فيتبادلون التحايا، والنسوة كثيراً ما يتوقفن للسلام فيطول حديثُهنَّ وينقلب الى سمر

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

واقف! والأولاد لا ينضب لهم معين : الكرة، والغناء، و «المخارية»، والكارطة، ومعاكسة الناس. أحياناً يمتُّد نشاطهم الليلي إلى ساعة متأخرة فُهم جزء من شرايين المدينة العتيقة المذهلة بحيويتها.

عندما رحل الهادي الى الرباط، حمل وَلَعَهُ بالعراك والتحدي. كان أخوه قد سبقه اليها مع امه، وهو لم يكن يريد أن يفارق فاس،وخاله الطيب الذي تعلق به كثيراً.غير ان ضيق ذات يَدِ الخال نتيجة كساد منتوجات الدراز،واهتزاز مكانة الصناعة التقليدية بعد أن انتهت الحرب وعادت البضائع الاجنبية إلى اكتساح السوق جعلا لالة الغالية تلح على استرجاع الهادِي لكي تخفف العبء عن أخيها.

بدت الرباط للهادي مدينة مفتوحة بدون أسرار أو مفاجآت. أزقتها متسعة ومستوية، والمنازل غير عالية ولا مثقلة بالزليج وبزخارف النقوش الجبصية. والدراجات تملأ الأزقة، والأزياء متنوعة أكثر. سيظل خياله مشدودا أمدا طويلا إلى حركة الليل بفاس، وإلى أصدقاء الطفولة المتواطئين معه. عليه الآن أن يواجه حياته الجديدة وأن يحدد له خطة يفرض بها نفسه في هذا المحيط الذي يبدو غريبا عنه. زوج أخته، سي إبراهيم، صارم و«معقول» لايحتمل المزاح ولا لعب الأطفال في الزنقة. يراقب الطايع ويحثه على الاجتهاد في دروسه. رجل مستقيم: من المقهى الذي يعمل به إلى الدار أو المسجد. الخدمة والثْمارة والنعاس بَكْري. أمه لالة الغالية منكبة على الصنعة: الطرز، والخياطة، وشؤون الطبخ، وتربية صغار ابنتها. عالم مختلف عما ألفه الهادي في فاس. والقيود التي يحاول سي إبراهيم أن يفرضها عليه مثلما فرضها على الطايع، تجعله كأنما يرتاد جحيما صغيرا. أخوه الطايع منهمك في حفظ الدروس والمواظبة على المسجد للاستماع إلى دروس التفسير والحديث. وحتى في أيام العطل عليهما أن يلتحقا بالمسيد لحفظ القرآن. فكر الهادي في طريقة تنسف هذا البنيان المتراصّ الخانق لأنفاسه، فلم يجد سوى لغة العصيان. وكان المسيدْ هو نقطة البداية. أقنع الطايع بأن ينضما

إلى فريق كرة القدم بالحي، وأن يتغيبا عن المسيد وصُداعه. ومرّت عدة أسابيع قبل أن يكتشف سي ابراهيم زَوَغانهما عن «الطريق المستقيم»؛ والجزاء معروف: العصا لمنْ عَصَى. واستمر الهادي يتحدّى ويستنجد بأمه ويحرض الطايع على إعلان أنهما لم يعودا طفلين. ومنذ ذاك، أصبح التمرد على سلطة سي إبراهيم هو المتَنَفَّس للهادي الذي لم يلبث أن اندمج في شبكة علاقات مع أولاد جيران البيت وبناتهم، ومع أولاد الحي، مواصلا إقناع الطايع بضرورة التخلي عن رزانته المبكرة.

في بداية الخمسينات، كان الهادي والطايع على موعد مع ساحة واسعة ستمتص منهما، تدريجيا، شيطنتهما وتضعهما على سكة طريق وَعْرة وحافلة بالمفاجآت. كانت أحاديث التوعية جزء من الدروس في المدرسة الحرة التي يدرسان بها. الأحداث تتواتر بإيقاع سريع متصاعد، واحتفالات عيد العرش مناسبة يعبر فيها الجميع عن مشاعرهم الوطنية وتعلقهم بالحرية. مناخ يبدو الآن خرافيا، مُوغلا في زمن لا يكاد يمتُّ بصلة إلى هذا الزمن «الحر» الفاقد لنُسغه وحرارته الداخلية. كأن الحرية تَبْهَتُ في غياب لغة العصيان ونُضوب قرابين الرفض. هل يمكن استعادة الفترات المتألقة، الحاسمة، بدون استحضار الوَهم الذي يلحم التيار ويجرف الحشد على طريق الاعتقاد بِصُنع التاريخ ؟ وَهْم ؟ حقيقة ؟ سيان الآن في عين من لم تَمْسسه نار تلك الحقيقة–الوهم. لكن ليس هناك أشد ألما من أن يُحرم جيل من فورة الحماس والتحدي التي تخلقها أوهام المرحلة وحقائقها.

وكان على الطايع والهادي أن يلجأا إلى لعبة التَّخبئة مع الفقر : يراهما ويتظاهران بأنهما لا يَريانه. يقص أجنحتهما، ومع ذلك يُتابعان التحليق. بدأا يسترجعان تواطؤ طفولة البدايات بفاس. وفي غمرة تفجّر طاقاتهما عبر اللعب والمدرسة والمغامرات والمظاهرات، كان النضج يتسلّل إليهما ليمنحهما الثقة والاصرار على الاستمرار. لذلك اتفقا على البحث عن عمل خلال عطلة الصيف يتيح لهما توفير بعض النقود لتأمين مصاريف الجيب، ومساعدة الأم، وزيارة فاس. دلّهما أحد أولاد الحومة على معمل ألمنيوم

بِالمرسى يملكه يهودي مغربي، ويعمل به أولاد يهود ومغاربة. بعد أن جرّبهما صاحب المعمل طوال الصباح، قرر أن يُشغلهما بأجريْن مختلفين، لأن الطايع أكثر مهارة في تنظيف طناجر وأطباق الألمنيوم بالنُشارة. يستيقظان باكرا، ويرتديان سروالين قصيرين وقميصين باليْن، ويَدُسّان تحت إبطيهما وجبة الغذاء التي أعدَّتها الأم في الليل، ثم يغادران الحيَّ مُتسللَيْن خوف أنْ يراهما أحد بلباس الشغل. في المساء يشعران بحرج أكبر لأن الحمّة تلطخ وجهيهما وأرجلهما وثيابهما. يجريان بسرعة ولا يَرُدان على نداءات الأصحاب إلى أن يدخلا الدار ويُبادرا بالاغتسال. شيئاً فشيئاً، تعوّدا على الشغل ولم يعودا يتحرجان أمام الأولاد لأن لالة الغالية أقنعتهما بأن العمل شريف وأفضل من السرقة. خلال شهرين من العمل يوفران مبلغا لابأس به، فيسافران صحبة أمهما إلى فاس لقضاء أسبوعين حافلين بالزيارات والسهرات والولائم؛ ويعودان محملَيْن بالهدايا، تملأهما نشوة إثبات رجولتهما المبكرة والانفاق على الأم في رحلتها السنوية.

لكن ذلك الصباح، صباح يوم جمعة غالبا، من شهر غشت 1953، غَيَّر إيقاع حياة الطايع والهادي، وطرد بقايا الطفولة ووساوس المراهقة لينقلهما إلى جدية عالم الكبار وهمومه. كانت قد مرّت بضعة أسابيع على نفي الملك إلى جزيرة كورسيكا، وقادة الحركة الوطنية في السجون، والتَّوتُّر في أوجه: لحظة المواجهة التي انتظرها الجميع بفارغ الصبر وبغير قليل من التّهيّب والتوجس. وكانت المبادرة للشبان والمراهقين الذين تجندوا للدعوة إلى مظاهرة الاحتجاج وإعلان السخط. كأن مدينة الرباط، آنذاك، خلية نحل مشدودة الأوصال إلى مركز تحريك موجّه للحركات والسكنات. كان التلاميذ والطلبة وشبان الأحياء هم الأغلبية في بداية المظاهرة التي انطلقت من المدينة القديمة؛ وكلما قطعت بضعة أمتار، انضم إليها أصحاب الجلابيب والطرابيش الوطنية، وزغاريد النساء تذكي الحماس وتلهب الحناجر، والشعارات تطالب بإرجاع الملك إلى عرشه وبالاستقلال، والهتافات تُحيي الزعماء... يتقدم الموكب ويتراجع الجنود.

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

عندما خرجت المظاهرة من قوس شارع الجزاء الأعلى، اتجهت يمينا نحو شارع لعلو، ثم وجدت قوات الجيش والكوم مرابطة عند منحدر شارع الأوداية المؤدي إلى المدينة الجديدة فاضطرت إلى التوجه عبر شارع القناصل، فالسوق التحتي. وهناك أيضا كانت قوات الجيش بالمرصاد. تَوقَّفَ الموكب دون أن تتوقف الشعارات والهتافات والزغاريد. كان من بين الطلبة والأولاد الذين يُؤَطرون المظاهرة ويوجهونها، طالب أعرج، قوي البنية، قد وضع منديلا أبيض على رأسه وجبينه، والعرق يتصبب من مجموع جسده، وهو يضغط بيده اليسرى على فَخِذ رجله المعطوبة ويجري معمّما الشعارات، يصعد تارة فوق سيارة أو دكَّة ملوحا بيده، ويهدر تارة أخرى بصوته الجهوري لتنسيق جوقة الحناجر المشتعلة؛ ثم لا يلبث أن ينط متدحرجا لينتقل إلى موقع آخر.. والطايع والهادي غائصان وسط ذلك الحشد المندفع يصيحان ويهتفان حريصيْن على ألاّ تخنقهما المناكب المتراصة والأجساد المتزاحمة.

www.liilas.com/vb3

MALLOULI

أصبحت المظاهرات تقليدا يتنادى له الجميع وتسري أخباره عبر مختلف المدن قبل أن تتكلم رصاصات الفدائيين الأولى في الأزقة والشوارع، وفي أحياء المدن الجديدة أيضا.. رصاص وقنابل ومظاهرات. والصيف الساخن يمتد ومعه تتناسل الأخبار والشائعات والتوهمات. انتقل الخبر سريعا من دار لدار، فامتلأت السطوح ليلا بالنساء والرجال والأطفال متطلعين إلى استدارة القمر، باحثين عن تقاسيم محمد الخامس وملامحه، لأن وجهه – تقول أصوات راديو المدينة – استوطَنَ القمر ليظل، رغم المنفى، متصلا بشعبه. واللغط يعلو في هدأة الليل، والفائز من أسعفه خياله السريع على تأليف صورة الملك ليعلن أنه فعلا رآه مبتسماً أو حزيناً، ضاحكاً أو عبوساً... لعبة طريفة، ساذجة، لكنها كانت تنفع في إذكاء جذوة التواصل والحميّة.

عاد الهادي، في فاتح اكتوبر، إلى مدرسته، بينما قرر الطايع أن يفتح

دكانا صغيرا لبيع الملابس والأحذية. في المساء، يتبادلان الأخبار ويتناقلان ما سمعاه أو عايناه من أحداث ومواقف سياسية. كانت مدرسة الهادي تغلي والتلاميذ يلجأون باستمرار إلى الاضراب تعبيراً عن سخطهم. بعضهم بدأ يهيء لتنظيم خلايا فدائية، والبعض الآخر ممعن في القراءة «والاجتهاد». والهادي موزّع بين المنفلوطي وجرجي زيدان وطه حسين وألفونس دوديه، وبين مسامرات الحزب وحضور دروس الحديث في الجامع الكبير يُلقيها العلاّمة المدني بالحسني. كان معجباً بطريقة ذلك العالم في تفسير الحديث وباتسامته الحييّة ووجهه الممتلىء المحفوف بِلحيةٍ وخَطَها الشيب. يقرأ السارد الحديث بِعَنْعناته اللاّتنتهي، وهو يتدخل ليوضح نسب كل صحابي أو تابع، وليوثّق الأشخاص والأفكار والمراجع، ثم يبدأ في التفسير منتقلا من التاريخ إلى الجغرافية إلى السيرة النبوية إلى النوادر والفكاهات.. وإذا ما استبدّت به الضحكة، ثنى أصابعه وأخذ ينظر إلى أظافره فتختفي الضحكة ويستعيد وقاره: عادة معروفة عن ذلك العالم الجليل، كثيراً ما حاول الهادي الاستنجاد بها، لكن ضحكته تكون أقوى، فينفضح أمره، مثلما حدث وهو يستمع إلى المحدث يحكي عن ضرورة مقاومة الصائم لشهوات النفس والبَطن، ويحذر من أن يضعف الصائم إذا عاد إلى بيته في النهار، ووجد ما لذّ وطاب من دجاج مُشرمل، وضلعة محمَّرة بالفلفلة والزعفران، أوكُسكس بالبصل والزبيب.. لم يتمالك الهادي نفسه فأخذ يضحك بصوت مرتفع ويضرب يدا في يد (كان يُجرب الصيام لأول مرّة)، ممّا جعل الحاضرين في حلقة الحديث يلتفتون إليه ويُفرجون عن ضحكتهم المكبوتة. مع سيدْ المدني بالحسني، يسترجع الكلامُ والتلفّظ قوتهما، وتَتَسَلْطَنُ صيغة الحكي، فيتوارى ما يُضجر ويُمِلّ، عادة، عند معظم فقهاء الحديث. كان عالمنا يسترسل في حديثه كأنه في خَلْوة مع جماعة أصدقاء بدون تكلّف أو إغلاق، حتى إذا سمع بداية أذان العصر، سارع إلى ختم حديثه بِبيت شعر غدا بمثابة اللاّزمة عند كل وداع:

فلو شاء الالاهُ لما افترقنا ولكن لاخيار مع الأذان

تعتـــيم :

اقتناع حدّ الهوس أن أبعد ذكرياتي الموغلة في بُكرة الطفولة، تلك التي أرى فيها نفسي، دون سن الرابعة، وأنا أخطو مشدوهاً، مفتوناً، منجذباً نحو جسد زوجة خالي سيدْ الطيب، الجسد الأبيض الهامد المسجى فوق المغسل. أخطو وقد تسللت من بين دفتيْ الغرفة المتعانقتين، وسكان الدار والمعزُّون مُنشغلون بالبكاء ولطم الخدود والضرب على الصدور. أخطو عند عتبة الغرفة الكبيرة التي أُفرغتْ من الأفرشة والحشايا، ولم يبق بها غير الزليج الأزرق والأسود، والمغسل الخشبي الواسع، وجسدها الأبيض بياضا بنصاعة الجير، وشعرها الفاحم الطويل منسدلا على الكتفين وقد استدار الوجه صوب الجدار. ما كنتُ أعي أنها ميتة. وما كنت رأيتها قبلُ عارية على كثرة ما نمتُ بين أحضانها بمحاذاة خالي. حية، كانت تُدللني وتغدق علي حنانها وهداياها وكلماتها الحلوة. صورة لاتتجزأ عن فترة الطفولة الباكرة التي قضيتها مغموراً بِعشقها. وأنا أخطو نحو جسدها المسجى مادّاً يدي نحو ثَدْييها، لم أكن أدرك أنها ميتة. ربما عندما لامستْ أصابعي صدرها البارد، في اللحظة التي امتدّت يدان لتخطفاني من وراء مولولةً احتجاجاً على ما يفعله الطفل المنسي في غمرة الحزن والنواح، ربما آنذاك بدأت ترتسم في سريرتي صورة ما، عن موت زوجة الخال الحبيبة، عن فُقدان حضور جسدي وعاطفي مُثقل بِالغبطة والدفء. ها أنا الآن وسط الدار الممتلئة بالبكاء والصراخ والأصوات الآمرة، بين ذراعيْن تُهَدْهِداني وأنا أبكي بدوري لأنهم أبعدوني عن الجسد الأبيض المسجى.

عند هذا الحد ينقطع شريط التذكر ولا يستأنف صُوَرَهُ المختزنة إلاّ بمجيء فاختة، زوجة خالي الثانية. لعبة التذكر مسلية، لكنها مرعبة أحيانا. فأنا لم أنفض الغبار عن لحظة الجسد الأبيض المسجى من خلال استحضار إرادي، بل فاجأتني في سياق آخر، وبعد مرور أكثر من عشرين سنة عليها. كنت صحبة امرأة أجنبية تعارفنا داخل مكتبة، وبدأ الحديث عن العالم الثالث لينتهي إلى شجون القلب ونزوات الجسد.وعندما يتلاءم المزاجان والرغبتان

فإن كل شيء آخر يمكنه أن ينتظر، يمكنه أن يتوارى ليسمح لِوَهْم اللحظة المشتعلة أن يتألق ويكتمل. داخل الغرفة، سويةً، مع أسطوانة فرانك سيناترا «غريب في الليل»، ودبيب الراح يتسرب عبر المسامّ والأوردة فيلهب النسوغ، والأيدي تتشابك والجسدان يتلامسان ويسارعان إلى التخلص مما يعوق التحامهما.. عندما نزعتْ ثيابها أحسستُني، فجأة، كأنني الطفل الذي كنته عند عتبة الغرفة متطلعا إلى بياض الجسد المسجى. أنظر إليها بذهول كأن غشاوة انتصبت بيننا. كأن الاشتعال همد. وعشيقة تلك الليلة البيضاء لاتفهم شيئا ممّا باغتَني. تسأل. تمرر يدها على جبيني. تُلصق شفتيْها بصدغي منحدرة نحو تَجْوِيفَةِ الكتف، نحو حلمة الصدر، وجسدي متجمد غارق في النهيج كأنه مصعد تعطل بين الطوابق. كنت أحس بلسعات بياضها سياطاً تحملني إلى عالم آخر. الموت أبيض. الموت لا لون له يردّ عقلي. ولكنه، لحظتئذ، يدثرني من خلال التذكر المفاجيء المستيقظ على غير ميعاد. وأقرر منذ تلك اللحظة أن مشهد المغسل هو أقدم ذكرى أختزنها من المرحلة السابقة عن «تاريخي». غير أن اللعبة تستمر، أو بالاحرى، كانت مستمرة خلسةً بدون أن أدرك فضاءها الذي جعلني أتحرك داخل إطار قوامه: أبيض / أسود. انجذاب لا يقاوم إلى المرأة ذات اللون الأسود وأيضا إلى ذوات اللون الأبيض ما لم يكن بياضهن من صنف ما اختزنته الذاكرة ساعة رؤيتي للجسد الأنثوي الميت. ويبقى للون الأنثوي الأسود عندي، ميزة وَهْم الدفء والحياة. لكن الأيام أنبأتني أن كل علاقة عميقة لن تبدأ إلاّ إذا أفْلت من لعبة اللون التي تطمس أمام عينيّ الظلال والمزايا الأخرى. ثنائية أبيض / أسود، مثل كل الثنائيات، تسلبني مسرة التوحد، مسرة اكتشاف الأصقاع الأخرى. لكن من منا يعيش بدون ثنائيات حافزة، تلك التي تشحذ الارادة والتحدي، وتسندنا في مغامراتنا من أجل البقاء والفهم والتغيير وتحمل ما يُنغص الحياة ؟

أَلَن يكون عنصر الاستمرار في حياتنا هو التواجد الخفي – الفاعل

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

مع ذلك – لما ورثناه منذ طفولتنا – ما قبل تاريخنا، حتى بعد أن يتبلور وعينا ونقتنع بضرورة تحمّل مسؤولية أفعالنا ؟ الماقبْل والمابعد يمَّخيَّانِ داخل الجسد والذاكرة، ويبدو لا وعينا أليفاً ألفةً تسعفه على هزم وعينا. كأن الجسد استمرار قَدَري لهويتنا ما قبل التاريخية، ومغامرة الحياة تجعل منها هوية تشع وتتوارى كالومض، داخل حلبة التقلبات والاكتشافات، فتغدو كيْنونتها مُرتهنة بابتكار متجدد لأفق تتحرك فيه.

أبيض ــ أسود، خريف ــ شتاء،حزن ــ فرح،حب ــ كراهية.. بينهما تتناسج العواطف والأفكار والأحلام. من جدليتهما ينبثق مطمح الاستمزاج والهجانة المخصبة، وتنبجس الشهوة يافعةً منفلتة من صدإ الرتابة والاعتياد.

منذ خمس سنوات، خلال زيارة لفاس، ذهبت ابحث عن ظلال ذكرى حاصرتْني حينما التقطت أُذناي مقطعاً من أغنية «رق الحبيب» لأم كلثوم. ذهبت الى مقهى «جنان السبيل» علَّني أجده كما عهدته في الطفولة : أشجار الصفصاف، والعرائش المرصعة بالياسمين، وطاولات من خشب عتيق، والزبائن جماعات جماعات يحتسون الشاي المنعنع ويردِّدون مع أم كلثوم :

واللّي في قلبــه شجـــن أنعــم عليـه بالوصــالْ

أو مع اسمهان : «أين الليالي اللواتي»، وهم منهمكون في لُعبة الكارطة وأصواتهم تنقلب، مِنْ حين لآخر، إلى صراخٍ، لكنهم في الآن نفسه، يتمايلون مع الصوت الشجي مُعبّرين عن استحسانهم. كنتُ أسأم من الجلوس إلى جانب خالي سيدْ الطيب المنصرف عني إلى لعبته، فأتسلل إلى الحديقة العمومية لأتفرج على الناس والأطفال قبل ان يتكاثف الظلام ونقفل راجعين الى بيتنا في المدينة القديمة.

الآن لا أصادف تلك الأغنيات ولا الزبائن المنهمكين في لعب الكارطة

والضحك والغناء. أتابع السير إلى الحديقة العمومية وأجلس على كرسي بجانب امرأة ملثمة، متقدمة في السن بعض الشيء. الساعة تقترب من الثالثة ظهرا، ورواد «جنان السبيل» قليلون. بعد فترة، ظهرت امرأة ترتدي«الحايَك» وأخرى بقميص وتنورة، وقد وضعت على رأسها منديلا أحمر. كانتا تتكلمان بصوت مرتفع كأنهما تتخاصمان. قالت امرأة الحايك:

– ضْحَكْ عليك...

ردّت المرأة صاحبة التنورة:

– دابا عوَّدْ يْطيح ف يديا ونتخلَّص منُّو.

قالت صاحبة الحايك:

– لْقاك كَانبوية. وْكَكان كنت أنا، والله ما نْخليه يَفْلت، والله يامُّو وما بغى يْخلَّصني حتى نزوّل لو فولة ونخليه غيرْ بوحدة !

قالت المرأة الجالسة على الكرسي نفسه الذي أجلس عليه:

– يالطيف يالطيف، ما بقى حياء ف الدنيا.

غلبتني الضحكة فوقفت منصرفا أخطو باتجاه المقهى القديم. أحاول أن أستنجد بما قاله شاعر الأغنية

وإيــه يفيــد الزمــن مــع اللــي عايــش فــي الخيــال

أستحضر تموجات صوت أم كلثوم وامتداداته وهي تطيل التساؤل، ثم أرفع عيني فأجدني كأنني أخطو بين أطلال. شيئا فشيئا، أفتح أذني لما يتناهى إليّ من نُتف كلام الجالسين في المقهى أو العابرين للحديقة؛ وأتذكر ـــ بسرعة تحوّل إلى ذكرى ـــ ما قالته امرأة الحايك لصاحبتها، فيعاودني الابتسام، وأُفكر بأن علينا أن نتعلم التآلف مع ما يستمر في الوجود.

ثم يكبر العالم في أعيننا

يقــول راوي الرواة:

أحس أن قانون اللعبة الذي اتبعته لحد الآن، لم يعد يُقنعني أنا راوي الرواة القابع في الركن المعتم، الماسك بخيوط السرد، الناقل لها من راوٍ لآخر. شيء ما يدفعني إلى التدخل. أحاول أن ابرره بأن كثرة الرواة قد تُضلِّل القارىء وتلقي به إلى متاهة يفقد معها رأس الخيط. لكن، هل هناك خيط ممتدّ حقّا وسط هذه التذكرات والمشاهدات التي أُنيط بي أن أوجه دفة سردها وتوزيعها على الرواة الذين جُعلوا رَهْنَ إشارتي ؟

المفروض فيّ أن أكون عنصر توازن يتكىء عليه الكاتب ليبددّ الغموض . لكنني لا أستطيع أن أزعم بأنني ألمس وضوحاً لدى من استنْجد بي وأمَّرني على رواته. عندما أفكر بيني وبين نفسي متناسياً صفتي السامية، فإنني اتساءل عمّا إذا لم أكن نَوْعاً من الرقابة يمارسها الكاتب من خلال ما أقوله؛ فالمفروض أنني أعرف أكثر ممّا يعرفه باقي الرواة، وأن لكلامي وزناً بصفتي مُطلعاً على الخَلفِيَّات وعلى بعض التفاصيل التي خصّني بها الكاتب، ويمكنني أن أستعملها لأزحزح ما حكاه الآخرون.

ومن أدراني، فلعل الكاتب بإطلاعي على أسراره، إنما يستعملني في لعبة أكبر يتقصد من ورائها أن يموّه أو يزين ما هو مشوه ؟

مهما يكن، فأنا راوي الرواة مطالب بأن أبرز دوري داخل هذه اللعبة. علّي أن أمدّ عنقي إلى الصف الأول حيث يمكنني أن أتصدَّر، وأن أوهِمَ نفسي بالتحكم في توجيه دفة الأحداث والوقائع، وحتى ترتيب الاستيهامات والأحلام...

www.lilas.com/vb3
MALLOULI

ولكي أسبغ على نفسي أهمية بالغة، أبدأ بتقمّص دور المزعج، المتمرد، الذي لا يتقيد بما يصدره المؤلف من تعاليم. أنا راوي الـــرواة وإذن ، من حقي أن أصحح ما يرويه الآخرون ولو لم يكن بحاجة الى تصحيح، فالرتبة تسمح لي بهذا الحق، وتسمح لي بأن «أبين حنة يدي» كما يقال، حتى ولو اضطررت إلى إفشاء الأسرار أو تشويه الصورة التي يروم الكاتب رسمها لشخوصه وعالمه.. مثلاً، لقد سكت الرواة جميعهم عن بعض التفاصيل التي وقعت لـ«الهادي» في طفولته. وهي تفاصيل تتصل بإغراءات جنسية من جانب أولاد وشبان؛ فقد كان الهادي وسيما وسامة لا تعيبها إلاّ نحالته المفرطة. كان «فَرْخاً» بحسب التعبير الشائع في لغة الحومة آنذاك. وكان الفتى البقال السوسي بالقرب من الدار الكبيرة، يلاطفه ويستدعيه للعب الكرة في سطح البيت الذي يسكنه. وهناك تبدأ المحاولات التي لم تكن تجد استجابة عند الهادي ربما لأن معاشرته لبنات الدار والأقارب حدّدتْ، مبكرا، ميوله الجنسية...

www.liilas.com/yb3

MALLOULI

يمكن أن أنبش أيضا فيما وقع خلال الليلة الثانية بعد موت سيدْ الطيب، بأحد فنادق فاس صحبة صديقة من طنجة قابلها الهادي صدفة وهو في غمرة الحزن والكآبة الممضّة...

لكن كل ذلك قد لايزيد من قيمتي في عين القارىء، لأن الأهم والأصعب هو كيف أُوجه السرد، وأُلَمْلِم خيوط الحكي المتناثرة بين أكثر من سارد، لأجعلها مقنعة مثيرة لفضول القارىء.

كيف نحكي ؟ هذا هو السؤال القديم الجديد. كيف ـــ أنا راوي الرواة ـــ أجعل رواتي يحكون انطلاقا من تجارب خاصة وأحداث عامة، واعتماداً على ما هو مُعتبر هامّاً أو فاقداً للدلالة.. كيف أجعلهم يحكون عن فضاء وزمان انتهيا، أو بالأحرى، يبدو أنهما انتهيا، داخل فضاء وزمان لا ينتهيان، داخل زمان سرمدي في حركته وتدفقه ؟

وضَعَني المؤلف في مأزق: كتب كل ما عرف وتخيّل، وقال لي: «أريد أن تنظم سرد هذه المادة الخام في تشخيص يستوعب الكلمات واللّغات التي نسجت حكيَها داخل مخيلتي، غير أنني وجدتُ أن جميع ما كتبته لا يرتقي إلى قوة الرجع المشعِّ الغامر للحواس والنفس. ألتجىء إليك، لأنني وأنا أعيد سرد ما عشته، وشاهدته، وتخيلته،وحلمتُ به، تبدو لي الأشياء والذكريات مختلفة مشوشة الصورة، باهتة بالمقارنة مع ما أعتقد أنني عشته وعاينتُه...».

قال الكاتب أشياء كثيرة، غير أنني حسمت الموضوع ــ دائما يجب أن يكون هناك من يحسم ــ ، بأن المسافة القائمة دوما بين المعيش والمتخيَّل والمكتوب والمحكي، تؤكد أن الأحداث والحياة بصفة عامة، تجري على أكثر من مستوى، متداخلة متشابكة.. مفهوم ؟ وإذن، سيكون جهدا ضائعا أن نعمد إلى إيهام القارىء بواقعية ما نحكيه.

سأُعطي الأولوية لِرَصْد أصداء ما نحكيه في نفوسنا، نحن الرواة، من خلال ما تبقّى في مخيلة الكاتب وذاكرته. هل من معنى لما يحكيه بالنسبة له ؟ لا المعنى المتداول، ولكن المعنى الذي يشبه بقايا الوشم المحفور على الجلد، يلتمع في لحظات الخلوة والبحث عن إيقاع الذات وأفق التصالح مع الكون والآخرين.

لا تتحفز لمقاطعتي. أعلم أن ما نعيشه ونرويه مشترك مع التيار الأعم الذي يُكيّفنا ويحدد رؤيتنا وقيَمنا ومواقفنا.. لكننا ونحن نحكي عن شخوصك، عن فضاء وزمان معينيْن، إنما نُعيد الاعتبار لقطرات الماء الضئيلة وسط خِضمّ الأوقيانوس.. ننسج وهْم التأثير المتبادل، ونُجمع من حولنا القطرات الشبيهة بنا لنغدو تياراً يتماوَج ويلوّن هدير البحر بِنَبرته.

تريد مثلاً ؟

تحملْ وقاحتي، أيها الكاتب، إذا كنتُ أستعمل طحينك لأعجن خبزةً

أُدلل بها على نباهتي؛ فأنا أريد أن أقنع القارىء بشطارتي وحسن اختياري في توجيه دفة السرد. سأضرب مثلاً بواقعة السيد «الضب» غفر الله له. أنت أشرت لها في الهامش مع احتمال استثمارها بشكل آخر، أي البحث عما آل إليه أمره بعد خروجه من السجن، وكيف يعيش الآن،وهل مايزال الناس يتذكرونه.. الخ. أنا أرى عكس ذلك، أي كنت أُوثر أن تحكيَ الواقعة لنتبيّن تداخل العام والخاص.. كيف ؟ لقد أخبرتك الذاكرة أن ذلك حدث في سنة 1946 أو 1947 بفاس، ولم يكن عمر الهادي قد تجاوز الثامنة. ذات صباح مشرق ــ ربما بداية الصيف ــ امتلأت الأزقة والأسْبلة، واصطفّ الرجال والنساء والأطفال، وتدلّت الرؤوس كالعناقيد من فوق السطوح والشبابيك والطاقات، في انتظار موكب المخازنية الذين يُطوّفون«الضُّب»عبر مسالك المدينة كلها، تأديبا له على ما اقْتَرَفهُ في حق فتاة من عائلة معروفة كانت ضمن الفتيات الرائدات في الالتحاق بالمدرسة، والخروج سفورا تلبية لنداء الملك الذي أعطى المثال بابنته.

www.liilas.com/vb3

وتحكي أن الهادي كان مستثاراً وهو يدُسُّ رأسه بين المناكب والأرجل ليُبصر وجه «الضب». على بعد عدة أمتار، كان المخازنية يمسكون به وقد أوثقوا يديْه إلى الخلف، وحلقوا رأسه، والدم ينفر من أنفه، والسوط ينزل على رأسه ووجهه وعينيه المنتفختيْن، وأصوات المخازنية تُلعلع : «هذا جزاء من يعصى أمر سيدنا...».

سيهتم الهادي بمعرفة التفاصيل، أو ــ كما قلت ــ فإنها بلغتْه من خلال الكبار الذين لا يتورعون عن أن يحكوا كل شيء أمام الصغار. وصفوا كيف تعرض «الضب» للفتاة عند انصرافها من المدرسة، وقادها عنوة إلى جنان قريب حيث عذّبها قبل أن يفتضها بوحشية وفظاظة، ثم التجأ «مُزاوكاً»، مُحتميا بضريح مُقابل لضريح المولى ادريس، اعتاد المذنبون أن يحتموا به. لكن الأوامر صدرت بإخراجه من الضريح لأن للمسألة علاقة بالحركة الوطنية وبرموزها ومشاريعها...

ما يهمني أكثر، أنا راوي الرواة، هو ما أشرت إليه في عجالة عندما قلت بأن صورة «الضب» ذي الجسم المدكوك، والوجه «المخْنَفَش»وجلطات الدم المتخثّرة على جلبابه، قد ظلت عالقة بذاكرة الهادي، مختلطة بما سمعه وتخيله عن الفتاة ـــ التلميذة العارية الجسد، الموضوع رأسها في داخل قادوس.. صورة الجنس والعنف والزجر والعقاب، وما توقظه في مسارب جسد الهادي ومَسامِّه، صورة ظلت تطفو وتختفي إلى أن عادت بقوة كاسحة بعد عشرين سنة، عندما كان، تقول ـــ والعُهدة عليك لا على الراوي ـــ يشاهد فيلما يابانيا بباريس يحتوي مقطعا عن المضاجعة حتى الموت: كانت فتاة الفيلم في حالة لابَشَرية وهي تتضرع للشاب المفتول العضلات، الشاهر لأداته الجنسية. تستزيده وتهمس له ألا يتوقف. تلهث. يتحركان من تحت لفوق، ومن فوق لتحت. تتأوه الفتاة من غور الأحشاء، والرجل كأنما يأتي حركة بسيطة لاتكلفه جهدا. يطول المشهد. دقّات على الباب. ينتزع الممثل جسده ليفتح الباب. شخص يفاجئه بضربة على الرأس. يَنْبَجِس الدم. يترنّح. والفتاة تبكي وتتضرع. تستلقي فوقه ـــ وهو يحتضر ـــ لتتابع فكرتها الشبقية التي أحالتها إلى لبوءة...

من يذكر «الضب» الآن ؟ أقصد من يذكره بنفس الطريقة التي عاشت بها ذكراه داخل جسد الهادي وذاكرته؟

لعلك اقتنعت بأن من حقي أن أتدخل أكثر، وألاّ أكتفي بتنسيق الخيوط والأسلاك من وراء ستار. قد يزعجك ذلك، لكنني أرجوك أن تعتبره تكملة للعبة تضعك أمام عناصر لم تتخيّلها أو آثرت السكوت عنها.

لنتابع، إذن، ما بدأناه. سأعطي الكلمة لشخوصك، إلاّ أنني سأحتفظ بحقي في التدخل. أقترح عليك أن نسمي هذا الفصل: «ثم يكبر العالم في أعيننا»، لأن الهادي بعد انتقاله من فاس إلى الرباط بدأ يكتشف الأشياء والأشخاص في اختلافها وتنوعها وتعقيداتها، لا كما كانت تبدو له في داخل مدينة الطفولة، المدينة ـــ الرَّحِم، الواحدة ـــ الموحدة.

سّـي إبراهيـــم يتكلـــم:

دابا انت تتسوَّلني على بزَّاف ديالْ الأمور، وباغيني نجاوبك عليها. هاذ الشيء تَيْخَصو وقت طويل، وأنا تابعاني صلاة العشا، وصعيبْ عليّ باش نحكي لك على حياتي من الصغُر.. ما تاخذهاشْ مني قلة الصواب. على كل حال غادي نْعود لك شي بركة، ولكن ما تْكَتّرشْ عليّ السؤالات. وهاذ الشيء اللي غادي نقولو لك أوَدّي ألأستاذ، راك تتعرفو، ما انْتَشي برَّاني، انت واحد منا وشْحالْ من مرة سمعتني تنحكيه لاولادي. إنما دابا جاك على البال باش تْسَجلو في المسجلة، إيوا أنا عمري ما عملت هاذ المسألة، غيرْ وجهك عندي عزيز أُوْكَانْ، أما أنا ما نبغيش نحكي للاخْرينْ على حياتي.أنا عْشت في السّتْرة ونبغي نموت في السترة،ستين عام راني فَتّها لْهيهْ.

أنا مولود حْدا «آيت باها» عرفتها ؟ مْنايَنْ جيتْ للرباط كان عمري عشرْ سنين. عمري ما دخلت للمدرسة، والوالد الله يرحمه كان تياخذني معه للجامع باش نصلي ونسمع ماقال النبي والرسول. كنت تنسرح الغنم، ومن بعْد جا الجفاف والقحط، نسأل الله السلامة والعافية، وطلعت لي الدنيا فَالرّاسْ، ومشيتْ عند الوالِد وقلت لُو لازم نمشي للرباط عند ولد عمي باش نخدم ونربح لفلوس بالمعقول. إيوا هو ما بغشايْ يْصيفطني. جيتْ أنا واحد النهار عسِّيتْ عليه حتى خرج، ومشيت للحفرة اللي كان تَيْخَبّي فيها لفلوسْ وخذيت منها حداشر ريال حَسَني؛ كان لها بَالْ في ذاك الوقت، وعوَّلتْ باش نهرب في الصباح، لكنني ما قدرتش وما دّانيش النعاس. وفي الصباحْ رجَّعتْ لفلوس لَبْلاصتْهم، وبقيت حتى لواحد النهار جا عندنا فقيه مجذوب بْقى تَيْشُوفْ فيّ وقال للوالد:

«أبَنْ مُوحْ ولدك ابراهيم تيخصّك تخليه يمشي للرباط، رَاهْ بعدا كان غادي يهرب لكم ويمشي وَحْدُو.. خليه يفتش على رزقو، على وَدّ هنا ما بقى غير الحجر والجراذْ...»

إيوا أنا مناين سمعت هاذ الكلام قلت التسليم وقمت بستْ لو يَدّو ويد الوالد. هكذا كان. الآغَدا ليهْ مشى معيا الوالد لَلْكَار وقطع لي البطاقة وقال لواحد الرجل تيعرفو : الله يخليك هذا واحد الريال خليه عندك إيلا ابراهيم احتاج شي حاجة شْريها لِيهْ»؛ مابْغى يعطيني حتى فَلْسْ، قال لي :

نوصيكْ أوْليدي إذا بْغيتي تربح فالدنيا والآخرة، هذاك الشي اللي تيشربوه هناك ما تذوقو، وهذاك الشي اللي تَيكْمِيوَه ما تْقَربو، الزِّنا بَعَّدْ منو، وحافظ على الصلوات الخمس وماتسرق ديال الناس. هذا ما نوصيكْ بِهْ.»

مناين جيتْ للرباط كْلَستْ مُور الاولى عند ولد عمّي. كان تَيْبَيّتْني في الهْرِي ديالو حدا جامع مولاي سليمان، حتى جمعت شوية دْلَفلوس وشريت الصندوقة باش تَيمسحوا السّبَابَطْ من عند واحد الشلح بثمانين ريال، ثمانين ريال لها بال ذِيكْ الساعة، وباع لي «لاليسانسْ» باش وَلِيتْ سِيرُورْ، إيوا جاب الله التيسيرْ بديت نَرْبَحْ ستة، سبعة دَ الريال في النهار. كـــانوا النصارى ما زال مَا خْذاوْ تافيلالت، خذاوها حتى لعام 1933.. وكنت تناكل غير بفرنك في النهار، والشّي لاَخُر تَنْخَبِّيهْ، وكل مرة في الشهر تنهبط للدار البيضاء باش نشري للوالد خنشة ديال السكر وصندوق دا أتايْ فيه عشرين كيلو، وتَنْصِفَطْها لو مع لْكِرَانْ ديال شركة «آيت مْزال» وهي تتوصلها لو حتى للدار...

من بعد ذاك الشيء وليتْ تنخدم فواحد المحل حدا أوِطيل «باليما» كان سْميتُو «سيرنوس» وكان فيه قهوة ومطعم ومحل كبير تَيْعَملُو فيه لَفْراحاتْ. مولاتو النصرانية قالت لي غادي نْخدموك فالصّالة مع لكراسَنْ، وشراتْ لي حوايج الخدمة من الدار البيضا، وبديت تَنْكابَلْ لَكْلِيانْ مزيان، وبداوْ تيعطيوني البوربوار بزّاف وتيقولو لي: «Toi, tu mérites»، والمعلمة حتى هي زادتني في الخُلْصة وكانت تتعطيني 100 ريال زايدة على لَكْراسَنْ لاَخْرينْ.

في عام 1937 وليْت نخدم في بَارْ هنريس هاذاك اللي قْبَالْة لاكار دَالمشينا، عْرَفْتِه ؟ راهُ مازال كاين حتى يومنا هاذا. كنت تنخدم فيه بُوحْدي وتنربح مزيان. ديما كان عندي لفلوس. شوية شْوِيَّه بغيتْ يكون عندي شي صاحب باش إيلا مُتّ نَجْبَرْ اللي يَدْفَنّي. هاذا ما قال لي عقلي، كان تَيخَصّني واحد الصديق.

تْصَاحبْتْ مُورْ الاولى مع واحد لَخْليفة دا الباشا بركاش: ماعْجبنشْ. عاود تصاحبت مع القايد بن ناصر، خدّام في القصر الملكي، كان مراكشي وَاحدْ بُوكَرْش .. ثم تصاحبت مع واحد الطنجاوي كان خدام في المجلس الأعلى .. وتصاحبت مع واحد سي رضوان عندو أملاك في شالة ومشيت عندو للدار، ومن بعد ماكْلينا جابو الكارطا، جيت أنا اللاّغدّا مارجعتش لعندو، على ودّ الوالد وَصّاني ما نخالطش بْحالْ ذاك الناس...

أختصر لك في القول، كنت نهار الجمعة تنمشي لِـ«حسان»، ذاك الساعة ما كانش مصوّب بحال دابا، كان غير خلاء.. كنت تنمشي لابسْ الكسوة دَالْمَحصور، وتنبقى نَتْسَارَى حدا السواري دا الجامع، وحتى واحد ما تيعرفني شنو تنْديرْ. أرَانَّا الشريف الله يرحمه كان حتى هو تَيْجي لَهْناكْ، وتيشوفني وتنشوفو بلا ما نتكلمو. واحد النهار أسيدي جا عندي لهنريس بَارْ، وجابْ معه، مازال تَنَعْقَلْ، واحد العبد صغير بالخُرْصة فْوَذْنيه. هو كالس وأنا تابعو بْعَيْني. ومناين جا يخلصني قلت لو: مْخَلَّصْ. قال لي شكون خلص ؟ قلت لو: أنا. قال لي: خُذ تخلّص وإلاّ عمرك ما تشوفني. إيوا قلت لو كلام آخر هاذا، كال لي خذ هاذو بركة منّي. قلت لو: مناين قلت لي بركة ما نردّهم فْوَجْهَك.

دوّز واحد الصيمانة وْجَا نهار الجمعة للقهوى ما جبرنيش، رجع نهار السبت وقال لي: البارح ماكنتيش ؟ قلت لو: أسيدي خْلَقَنَّا الله تعالى ثلاثة دْالَعْياد فالدنيا، قال لي أما هي هاذ الأعياد ؟ قلت: نهار الجمعة عيد في السماء وعيد في الأرض. قال: زدْ. قلت: وفيه واحد الساعة دَ الربح

ما عْرفنشاي واش تتكون حيث تيتكلم الأذان، أو واش حيث تيتكلم الفقيه، أو مناين تيكلس وَيْنُوض من على المنبر. قال لي: صَدَقت؛ زد شنو هو العيد الثاني ؟ قلت لو: عيد رمضان. قال لي: زد الثالث. قلت له: العيد الكبير. قال لي: وْفايَنْ خليت عيد المولد ؟ قلت لو: المولود ذكرى النبي ﷺ. قال لي: وباشْ فضلت نهار الجمعة ؟ قلت لو: أسيدي نهار الجمعة خلق فيه الله تعالى سيدنا آدم، نَزَّلُو فيهْ الطَّبْلة والقلم، ثم توفّاه نهار الجمعة، والحقيقة، كل نهار عندنا عيد. قال لي الشريف: أحسنت. إيوا وطلب مني باش نجي عندو نهار الجمعة للدار.

هكذا كانْ، مشيتْ عندو نهار الجمعة وبداتْ الناس تَتْجي كل واحد، تبارك الله، لْحَيْتو حتى لَهْنا، وبْدَاوْ ذكر الله. ما نكدبش عليك، وْقَفْ لي الشعر في راسي. عْجَبْني الحال. قلت لو: أسيدي ادْعِ معايا. قال لي: إيلا بغيت الجمعة الماجية عَاوَدْ أجي.

بديت كل جمعة تنمشي لعندو. ولما قامت الحرب العالمية الثانية وَلَّتْ الوقت صعيبة. الحرب لهْلا يجعل الانسان يكون فيها. كل شي وَلّى بِالْبُونْ. قلت لو: أسيدي إيلا بغيت نتسخّر لك للدار أنا يمكن لي نجيب لك اللحم والسكر بلا بونْ، عندي صحابي فرانسويين ومغاربة.. كذلك كان.

واحد النهار قال لي الشريف: سّي ابراهيم تيخصني نْزوجك. كنت خايف من الزواج، خايف ناخذ شي مْرا تلعب بيا. جا هو قال لي: غادي نزوجك وْتَرْحَمْني وأنا باقي في الدنيا. وهكذا كان. والله إيلا كنت تنرحمو وهو باقي حي. لالّة نجيّة مْرا مزيانة، صبّارة. ما عندي ما نكول.

هذاك الشريف ما عندو ثمن، وخّا كان تيحب الطواجين الله يرحمه وْتيْقَسّحْ لكلام مع اللي ما تَيَعْرَفْهومْشْ. أنا تنعرفو مزيان. سافرت معه لايفران، ولمولاي إدريس ديال زرهون، وكان تَيَنْعس في الكيطون وأنا على برّا تَنَتْصَنَّتْ. كان الرجل ناعس وتيذكر الله كأنما فايق. العجب. عمري ما شفت بحال ذاك السيد. واحد النهار كالها ليا، قال لي: انت تتنعس حدايا،

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

ما تْفُحْشْ بالخير ديالي». أنا عمري ما قال لي شي حاجة خايبة. تَيْخص الواحد يكون قلبو خالص لربي العالمين...

..إيوا حقّا الأيام تبدلت كيف قلت. قبل الاستقلال كانوا الناس متشبثين بالأخلاق المحمدية. دابا كل واحد تيفتش على ما يخطف ويْدَلّي. أنا ما قلت لك والو. البّو لتيك صعيبة أسيدي مولايْ، هاذ الشي تنعرفو من أيام لَفْرنسيس. كانوا تَيْجيوْ عندنا لبار هَنْريس غير ياهوما: كابرانات وكُنُونيلاتْ، وكُونْترولوراتْ في البِيروآراباْ.. وأنا كنت تَنَعْتَني بهم مزيان، تَنْسَرْبِيلْهُم وْنَوْقَفْ حداهم وْنَرْخي وذْني. كانت الحرب ما زالا عاد بْداتْ وهما خايفين من لاَلْمانْ ومن المغاربة اللّي بداو تيكتبُو على لَحْيوط وتيصورو لْكَرْوا ديال لالمانْ. إيه أسيدي مولاي، كانوا خايفين بزاف، وكان واحد لكونترولور سيفيل، ما زال تنشوفو ما بين عينيا، قصير وغليظ تيشرب الرُّوجْ صيفْ وَشْتا، كان جا عندي واحد النهار وبدا تيسوّلني على الحرب، وعلى شنو تيكولوا الناس: واش باغيين فرنسا تربح والاّ لالمان. أنا كنت دايما تَنْجاوبو: «اللي بْغاها الله احنا معها»، وهو، ولد الحرام، كان تيكول لي: «الله معنا، إيلي ضانْ لابوشْ Il est dans la poche، أستغفر الله.

قبل الاستقلال، لمغاربة ما كانش عندهم البوفوار، يعني ما كانوش تيحكمو. كان لفلوس موجودين واللي بغى يقضي حاجة تيجمع لفلوس. دابا، اللي عندو الحكم في يدو، راه تيلعبْ. الجوّ تبدّل. كان الناس تتعاطف وتَيْسلفو بَعْضَيَّتْهُمْ. اليوم لا، تْطوَّر الوقت. اللي مشيتو عندو، وخّا عندو المال، يكولك أنا عندي بزاف دالْبِيبانْ ما نْسَدّ. ومن طبيعة الحال، هاذ الشي اللي تَنْعيشوهْ راه كان كالها سْمِيْتو.. سيدنا علي كرّم الله وجهه، في المنامة اللي كان حلمها. كان كالك نْعَسْ وْمَثّلْ لو الله تعالى أنه ادخلْ لواحد القرية، وْجْبَرْ ألْوادْ حَامَلْ: الحجر الكبير تحت، والحجر الصغير لْفُوقْ، قال: هاذا عجيب ! الوادْ حامل غير بالحجر الصغير والكبير. زاد، جْبَرْ واحد لْعود كل ما يُطْلَبْ قدّامو دَالخيراتْ، ولكنه يابس بحال الحجرة، قال: هذا

عجيب ! زاد، جبر البكرة والْدة وتَتَرْضَعْ رَاسْها، قال: هذا عجيب ! زاد، جبر واحد المَحَل الصَّهْد فيه بْحالْ جَهَنَّم واحدَاهْ شجرة كبيرة، قال مع بالو تحت منها غادي نَجْبَرْ شوية دَالَهْوا. لما دخل تحت الشجرة جْبَر الصهد ديالها كْثَر من صهد الشمس، قال: هذا عجيب! زاد، قالك جبر واحد لْكطْعة دالَغْنَم لْحدّ الشوف، وفيها واحد لَكْبيِّشْ بزّ تَيَرْضَعْهُم كلهم وتيغوّت ما زال ما شْبَعْش، قال: هذا عجيب!.

اللَّغَدّا في الصباح مشى سيدنا علي لعند النبي ﷺ وحكى لو حكايتو. جَاوْبُو النبي وقال لو: اللّي حْلَمْتيه هو اللي غادي يَوْقع في قرن ربعتاشر ياعلي. هذاك الوادْ اللي جبرتيه حامل الحجر الكبير والصغير فوق منّو، هو بْنادَمْ ديال ذيك الساعة (سي ابراهيم يُعلق: واش بنادم الصغار عندنا تيحترمو الكبار ؟ انت دايز وهما تيلعبو الكرة. زمان، كنا تنحترمو اللي كبر منا. اليوم لا، الصغار راكبين فوق الكبار، ما بقشاي الحيا). كال لو النبي: هذاك العَوْد اللي جبرت كل شيء قدامو وهو يابس، هو التاجر ديال ذاك الوقت، غادي تكون عندو الخيرات وهو مريض.. وكذلك الصهد اللي جبرت تحت الشجرة، معناه التاجر في القرن ربعتاشر تسمع عندو المليارات، ولمّا تطلب منو يْسَلْفك أو يعاونك، يكول لك عندي الضريبة، عندي كذا، مَشَاكِلُو كثر من ديالك تيخصك تهرب منو. قال لو: والبقرة اللي والدة وتترضع راسها هي بْحال لعيالات ديال ذاك التاريخ (كاين شي عائلات تتزوج البنت ديالها وَتْطَلّقها باش تعيش بها حاشاكْ..) قال لو: أما القطعة دالغنم اللي تَيَرْضَعها واحد البَزّ بْلا ما يشبع، فهي بحال الرؤساء دْيال هاذ الوقت. ما كذبش ﷺ. شوف هذاك الرئيس الأمريكاني شحال عندو، ودايماً تابع البلدان الاخرى تَيَرْضَعْها كلها وما زال تيغوت ما سبعانش.

هذا هو قرن ربعتاشر لاهنا لامعاشْ كيف كال المجذوب، قرن ربعتاشر بكى عليه النبي ﷺ.

www.lilas.com/vb3
MALLOULI

دابا دخلنا في قرن خمستاشر، وكاين اللي تيكول لك غادي يجيب الله الضو للاسلام في هاذ القرن.. الشبان اللي تَيتْكَوْنُو يمكن يدافعو على الاسلام. يمكن يكون واحد الحل من هنا لَلْقدّام. لابد الواحد ينوي الخير. دابا يجي اللي يصلحنا، غير احْنا ما قابطينش الطريق. خرجنا على الطريق. اليهود ما كانوش شادين الطريق، ضربهم الله تعالى، سْخطْ عليهم سيدنا داوود، وسيدنا سليمان، وسيدنا موسى، وعيسى ابن مريم، والنبي ﷺ. اليهود مساخيط، تْشَتتُو. لكن دابا المصيبة الكبيرة هو الأمريكان اللي تَيْأيّدهم. شوف الرومان شنو كانوا دايرين في العالم، وفي التالي نَاضَتْ بِينَاتْهُمْ، وتشتتُو، وجات النهاية ديالهم...

غدّا، ما عرفناش آش ماشي يكون. إيلا بغى الله تعالى يكوّن حاجة يكونها. الدنيا تتغير. وْكَكَانْ المغاربة يخدمو، يصلحو بلادهم وْيَعْتَنِيوْ بها، راه المغرب ما كاينش بحالو. عندو النّعم والخيرات، ولكن يْخص كيف كال البابا (Le Pape)، رانا سمعتو في التيلفزيون، كال تيخص la justice، العدالة، على وَدّ الظلم لايْنْتَصَر ! جَابْها، وْجابْها في المفصل...

تعتيم:

عندما رأيت سي ابراهيم، أول مرة، وجدته جميلا، ممشوق القامة، عيناه عسليتان، وشعره أسود فاحم، وابتسامته أليفة.. كان ذلك أثناء حفلة الخطوبة. والمرة الثانية كانت بمقهى هانريس أو على الأصح ــ وحسب ما تؤكده اليافطة الآن: Henr'ys Bar. كنتُ صحبة الأم والأخت راجعين من مسجد أهل فاس الكائن بتواركة حيث كنا نتفرج على صلاة الجمعة التي يحضرها الملك، ويعزف خلالها عسكر سيدنا على آلاتهم النُّحاسية وهُمْ مرتدون لبدلاتهم البيضاء ذات الأشرطة الحمراء، وقبعاتهم مشدودة بِرَزّات بيضاء، ولون بشرتهم الأسود يلمع تحت أشعة الشمس.. فرجة تقليدية تُسلي الأطفال والنساء خاصة. وكانت الفاتحة قد قُرئت منذ أسبوع،

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

والاستعدادت جارية للاحتفال بزواج أختي من سي ابراهيم، لأن الشريف لم يمهلنا أكثر من شهر. كانت أختي تحاول أن تسترق إليه النظر من رصيف محطّة القطار، لكنها لاتلمح إلاّ طيفه المسحوب المتحرك برشاقة بين طاولات المقهى. بدون استئذان، أنفلتُ من يد أمي وأجري صوب المقهى. تناديان علي، لكنني أكون قد وصلت إلى سارية هنريس بار وبدأت أتربص الفرصة لأشعر سي ابراهيم أنني موجود. بعد حين تنبّه إليّ، فأخذ يرحب بي مثلما يفعل مع الكبار.. أهلاً سي الهادي نهار كبير هذا.. تفضل، شنو تبغي تشرب، مع من جيت ؟ لا أجسر على ذكر اسم أختي فأكْتفي باسم أمي وأنها تنتظرني قرب المحطة. يُجلسني على طاولة ويقدم لي الموناديا ثم يحمل إليّ علبة كبيرة من البونبون الأمريكي الشهير...

وجهه نَسَجَ ألفة بيننا لم تمَّح أبداً. كان يحبني لأنني مجتهد في المدرسة، وأحببتُه من خلال قدرته على الحديث وحكي القصص والاستشهاد بالأحاديث النبوية وبما يسمعه في المقهى من اراء وتحليلات سياسية، وما يلتقطه عبر الاذاعات. كان ــ عرفتُ ذلك بعد إتمام الزواج وتقاسمنا السكن في بيت واحد ــ لا ينام إلا والمذياع مفتوح وهو يستمع إليه قبل أن يغفو؛ وكثيرا ما يظل صوت الراديو مسترسلاً حتى الصباح.

لبضع سنوات، اقتسمنا سفلي أحد المنازل بالمدينة القديمة. كنت أنا وأمي وأخي الطايع نسكن في غرفة، ونستعمل قبواً ــ كان في أصله مطفية ماء ــ قاعةً للدرس رغم رطوبته الشديدة. وكانت أختي وزوجها يعيشان في غرفة واحدة، والمطبخ والمرحاض مشتركان. في «الفوقي» تقطن عائلة من فاس، وأخرى فوقها في «المصرية» وغُرف السطح. وقبل أن تلد أختي طفلها البِكر، دأب سي ابراهيم على فرض قيوده وإصدار تعليماته إلينا جميعا، لأن نمط حياتنا المنشرح المتخفف من التزمّت، لم يكن يلائم مزاجه المتشدد مع النفس قبل الغير. كثيرا ما كان يكرر مشاهده الوعظيَّة مع أختي بصوت مرتفع حتى يسمع كل من في الدار:

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

«أنا ما نبغيش المرا تخرج للزنقة. جامي، جامي Jamais. اللّي توحشك من احبابك يْجي لعندك، وسيد العربي بن السايح تْوَصْلو زيارتك من دارك؛ وما نبغيش نجي ونلقاك كالسة مع مالين الفوقي أو مالين السطح.. كلها يَلْزَمْ ما حدّ له ..» .

طبعا ترد الأخت وتدافع بأنها لاتخرج وحدها بل بصحبة والدتها، وأن الجيران هم أولاد ناس ولا يمكن أن تظل النهار وْمَا طال داخل غرفتها المعتمة كأنها في حبس. وينتهي المشهد بالنشيج والبكاء، وتتدخل لالّة الغالية لتُطمئن سي ابراهيم بأن كلمته هي التي ستكون، وأن عينيها ساهرتان أكثر منه على فلذة كبدها.. بينما أكون، أنا والطايع، في الغرفة الأخرى نُبدي تَبَرُّمنا من هذا العزرائيل الذي خرج لنا من الجنب يُكدّر صفاء أهل البيت المنسجمين، ويُحصي أنفاسنا، ويمنعنا من لعب الكرة في الزقاق وداخل فسحة وسط الدار الصغيرة.

بعد أن أهل مولوده البكر، بدأ سي ابراهيم يتغير قليلاً، لكنه ظل صارماً ومتحدثاً بالوعظ والارشاد. فعندما ينتهي من صلواته وأدعيته وأوراده، يقعد على جلدة الخروف الوثيرة،والمسبحة بيده، ويأخذ في محادثتي أنا وأخي. يبدأ من تفسير حديث نبوي، وينتهي بسرد قصص خرافية سمعها في سوس وهو طفل، فكُنا نجد فيها نوعاً من التخريف اللَّذِيذِ يجعلنا نُنصت إليها باهتمام خاصة وأن لهجته كانت تثير ضحكنا، فكان ينهرنا قليلاً ثم يتابع حَكْيه .

أصبح سي ابراهيم، وسط سكان الدار، مرادفا للتمارة والمعقول والتقوى والجد والعمل المتواصل. كريما كان ولكن في اقتصاد. يعمل لآخرته كأنه سيموت غداً، ولدُنياه (لأولاده) كأنه سيعيش أبداً. بذلك استطاع، بعد بضعة أعوام، أن يشتري منزلاً وأن يبدأ في استثمار مدخراته. لكن استقامته لم تُتح له أن يغتني كثيراً فظل حتى بعد أن أصبح له أحد عشر ولداً وبنتاً، وبعد ثلاثين سنة من الكد والتعب، يعيش في حدود الستر وكفالة ما تحتاج إليه أسرته الكبيرة.

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

وأنا انظر اليه الآن ــ وجهه لم يتغضَّن كثيراً ــ أحس نفس الانجذاب الى شخصه منذ أن كنت طفلاً. الابتسامة الأليفة ذاتها، والعينان الذكيتان، والفضول لمعرفة ما يحدث في العالم، والجرأة على قول أفكاره وتأملاته ولو كانت بعيدة عن الهدف.. نفس التلقائية ولو أن الزمان جعله أكثر مرونة وتسامحاً مع أولاده وبناته. أحاول أن أختزل سبب انجذابي إليه فأحتار. أتذكر دوماً حرصه على عمله وعلى هندامه : القمصان البيضاء بدون «رقبة»، والرقبات المفصولة التي يستبدلها يومياً، والبابيون الأسود، والبدلة الزرقاء الغامقة ذات الصدرية المزَرَّرة. وقبل أن يمتطي دراجته، يضع مِلقطيْن في أسفل البنطلون تفادياً لوسخ سلسلة الدراجة. حركات مكرورة. مضبوطة. وعادات منتظمة، وتكتُّم شديد. حين يعود إلى البيت يرتدي الجلباب والبلغة ولا يفترُّ عن ذكر الله وتلاوة القرآن بصوت مرتفع. كنت أتطلع إليه دائما باندهاش: هل لأنه كان قادراً على أن يعايش الفرنسيين ويتكيف مع حياتهم أثناء العمل، وفي الآن نفسه يظل قريبا منا داخل البيت ؟.

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

في تعرجاته، في تنوع نمط حياته، ظل مشدوداً إلى هدف لايحيد عنه: الاهتمام بزوجته وأولاده، وتحمل كل الأعباء في سبيل أن يكفل لهم حاجاتهم. حياة بسيطة وعادية، لكنها دائماً تثيرني وأنا أستعرض مراحلها وتفاصيلها.. وأنا أسمعه الآن يسترجع مسيرته ومغامرته منذ أن خرج طفلاً من «ديلي» مسقط رأسه بالقرب من آيت باها، لا أستطيع أن أن أختزل سرّ وحدته داخل مسار، لأنه عاش باستمرار، محاذيا للحياة في تنوعها وتناقضاتها.

ذات مساء، نزل سي ابراهيم الى القبو حيث كنت مع أخي الطايع نراجع دروسنا. تحدثنا في موضوعات عامة، ثم أخذ يحكي لناقصة لم يسبق له أن حكاها. قال إنها وقعت له بعد انتهاء الحرب ودخول الأمريكان. «اسمع أسيدي مولاي» تلك كانت عبارته المفضلة لاثارة الانتباه: «واحد النهار جا

عندي واحد الأمريكاني لهاذ القهوى اللي أنا خدام فيها، هنريس بار. كان لابس الصّايْلة البيضا المخططة بالازرق، وْحَاطّ الكيبّي على راسو. ما علينا ش. طلب مني نْسَرْبي لو الويسكي، سَرْبيتو لو. شرب وعاود، وبدا تيتكلم معايا وأنا تنجاوبو على قدّ لْميرِيكانية اللي تنعرف، وتَنْسيّس معه ونعملو خاطرو. إيوا زاد فيه، بدا تيدخل في الهدرا ويخرج، وطلب مني حاشاكم نجيب لو شي مْرا. شفت فيه وحمّرتْ وقلت لو يخلصني ويزيد خلفة. بدا تَيتقَبّحْ عليا وسَبّني. إيوا ما نكذبس عليكم، مارضيتش وطلع لي الدم لراسي وبغيت نطير عليه نْقجو ثَمْ ثَمْ. عاود قلت الله يخزيك الشيطان. واحد الشوية وهو وقف باش يمشي للتواليت حاشاكم، وأنا تْبان لي فيه. خليتو حتى دخل وشد الباب عليه، ودخلت أنا للكابينة اللي حداه وجبدت واحد لَمْطَرْقة صغيرة دايماً كنت تنْخَبّيها معايا، وعطيتو ضربة في لعروق دا الراسْ، ورجعت في حالي بعد ما خبيت المطرقة في الشاسي. دازت واحد الساعة مكانية وعاد جَبْرو الميريكاني ميت في التواليت. جا البوليس وسقساني قلت لو راه شرب بزاف وكان سكران مناين مشى للكابينة وما رجعش. من بعد البحث قالوا راه طاح على راسو ومات. الله يسمح لي ويغفر ذنبي.. هادوك الميريكان ما مْرَبْيينْشْ أسيدي مولاي، وأنا ما رضيتش يسبني ويسب أمّي وابّا والملة ديالي.. وغير بالحيلة خذيتْ ثاري منو. تَيْخص الواحد يعرف يْخَدّم عقلو أسيدي مولاي..».

دُهشتُ أنا والطايع مما حكاه لنا سي إبراهيم. هل هذا ممكن ؟ أن يقتل أمريكيا وهو الحريص على عمله وسمعته وتديُّنه ؟ وما معنى أن يحكي لنا نحن ذلك ؟ قلت ساخراً: لعله أحس أن قصصه القديمة لم تعد تُثير اهتمامنا، فاخترع هذه القصة ليعيد الاعتبار الى ما يحكيه..».

لكن قيمة سي إبراهيم زادت في عيني. بدأت أنتظرُ عودته في المساء بهندامه الأنيق ووجهه الغامض، منذ تلك الليلة، علّه يحكي لنا مغامرة جديدة وقعت له في المقهى. غير أنه لم يعد إلى تلك الحكاية. بعد عودته من الحج،

وبعد مرور أكثر من ثلاثين سنة على قصة الأمريكاني، سألته ذات يوم عن صحة ما حكاه لنا أنا والطايع. ضحك ضحكته القصيرة وقال:

«إن الله يغفر الذنوب جميعا ولا يغفر أن يُشْرك به. أنا كنت تنمشي ساعة ساعة للسينما بلا ما نقولها للاّنجية،لأن السينما فيها فوائد وتتفتح البصيرة وذاك النهار شفت واحد الفيلم بوليسي وجاتْني الفكرة باش نألف لكم قَصَّه جديدة.. وكان ذاك النهار واحد لْمِيريكاني جا فعلاً عندي للقهوة وتكرفَسْ عليا.. لو كان جبرت وككان قتلتو.. إنما الله عْمَلْ تَاويلْ».

كنت، إلى تلك اللحظة، أعتقد أنه قتل الأمريكاني. يُصلي ويصوم ويحافظ على الأخلاق المحمدية ويقتل الأمريكاني.. لم أعد أجد في ذلك تناقضا مادام البادىء أظلم؛ بل مادمت أريد سي ابراهيم بطلاً نسجته مخيلتي الطفولية، والبطل لا يمكن أن يكون بدون أسرار ونزوات وأيْدٍ قذرة.

أنظر إليه الآن وأشعر بتواطؤ غريب. أمام أولاده وبناته الأحد عشر، وهو يتكلم واثقاً رغم تبدّل الأحوال، يبدو عملاقا يُضاهي الصورة التي كونتُها عنه ونحن نعايشه في صرامته وغموضه ودأبه. يتكلم أمامهم معلقا، منتقداً، أو راويا عن زمانه، فَتُطوّقني نشوة خاصة. فأنا قد رأيتهم عندما دقوا باب الحياة أول مرّة، ودبّوا في باحة الدار أو في غرف الشقة، وتطاولت قاماتهم ففاقَتْ قامتي. مختلفون، هم وهن، عن والدهم سي ابراهيم. أحادثهم كثيراً لكنني دائماً أحس أنني أعرفه هو أكثر مما أعرفهم. يكفي أن ألتقيه ليبادرني: «إيوا سيدي مولاي، آش من اخبارْ في الدنيا ؟»، فَيَرْشَح من سؤاله الزمنُ المضييء المتوثب في ذاكرتيْنا.

لالَّة نجية: أمّ ثانية.

إضـــاءة:

عندما سكنت لالة الغالية وابنتها نجية، وابنها الطايع في السّفلي، استبشرنا خيرا. أختاي، واحدة هجّالة والأخرى عانس، سرعان ما أحبّتا

الأسرة الصغيرة الوافدة من فاس، ربما لأننا أيضاً من نفس المدينة. و لم تمض بضعة أسابيع حتى شملنا الوئام والتفاهم. قرَّبتْ بيننا اللغة المشتركة وأصول «الصواب» واللياقة. أصبحنا كأننا عائلة واحدة. أولادها يُنادونني «خالتي كنزة»، وهي تدعوني أختها، وأولادي يفعلون نفس الشيء. أسعد الأوقات قضيتها صحبة لالّة الغالية ونجية. مرة في الأسبوع نذهب إلى «سيدي العربي بن السايح»، نُصلي ونتحدث قليلاً مع امّي سْعادة القيّمة على البيت الملحق بالضريح. كانت لالة الغالية تفتقد كثيراً صحن ضريح ملاي ادريس ونافورته اللاّغطة دوماً بمائها الكثيف. عند الأصيل، نصعد إلى السطح ونحمل معنا الشاي والسكر وما تيسر من الأكل الخفيف أو الحلوى، لأن عايشة لَقْصيوْرة، الساكنة بِغُرف السطح، بخيلة لا تستضيفنا مثلما كنا نفعل معها. القعدةفوق السطح تشرح القلب وتزيل الوخم. وكثيراً ما كانت لالة الغالية تحكي لنا عن أخيها سيدْ الطيب، وعن ابنها الهادي قبل أن يلتحق بها. أخْبرتنا أنها ما كانت لتغادر فاس لولا أن الشريف بعث إليها، بعد موت زوجها، يستحثها على الحضور إلى الرباط حتى يتمكن من تزويج ابنتها نجية. حاولت أن أقنعها بأن أوان الزواج لم يحن بعد، وأن عليها أن تعلم ابنتها الصنعة، ولكنها كانت لا تستطيع أن تعصي للشريف أمراً خصوصاً وأن زوجها كان يثق به ثقة مطلقة. الله يرحمها روح، لالّة الغالية عَمّرْ الزمان ما يْجود بوحدة بْحالْها.. حبّيتْها كْثر من خْواتاتي..

أختصر في القول، فأنتم تريدون أن أحدثكم عن لالة نجية، لاعَنْ أمها. أنا أشفقت عليها في أول الأمر لأن سنها لم يُجاوز الخامسة عشرة عندما زوجها الشريف لسّي ابراهيم. كانت خجولا، حياؤها يَغْلبها. رزينة، لا تفعل شيئاً إلاّ بعد تفكير، وكانت تبدو أكبر من سنها بكثير. والسّي ابراهيم ما عندي ما نقول، الله يْعَمَّرها دار، معقول واشْ مَنْ معقول..إنما كان طبعه مانعا. الشلوح ماشي بْحالنا حْنا أهل فاس. إنما دايماً كان يراعيها ويشتري لها ما تريد، ويحرص على تعليم أولاده وعلى مساعدة الطايع والهادي. وقد اكتسبت نجية خصال أمها فاستطاعت أن تعوضها بعد موتها

وطوال السنوات التي ظلت ساكنة معنا، قبل أن يفتح الله على سي ابراهيم ويشتري شقة في ديور الجامع. كانت تحدب على الجميع ولا تستثني أحداً، حتى الطفل عبد الحق، ابن الحاج المكي من زوجته الأولى، الذي كانت عايشة لقصيورة تربطه إلى الدربوز وتخرج، كانت لالّة نجية تصعد إليه في السطح حاملة الأكل والشوكلاتة لتواسيه وهو يشكو إليها ما فعلته امرأة أبيه، مشيراً الى آثار الكيّ على يديْه ورجليه: «..ماما عايشة.. ديدّي.. لمعلقة...».

كنت أحاول أن أنبهها إلى أن كثرة الأولاد تضر بالصحة وتثقل الكاهل، لكنها لم تكن تستطيع أن تخالف مشيئة سي ابراهيم. من الصباح إلى الليل وهي منهمكة في الطبخ والنفخ والغسيل وكيّ الملابس والاهتمام بالأولاد؛ وقلما كانت تحضر في فرح أو تخرج لِفُسحة. كنت أقول لها: «يا بْنيْتي يا لالّة نجية هاذ الشي بزاف عليك. الحمل ثقيل وانت بوحدك. شوية لربي وشوية لقلبي...» فكانت تبتسم راضية بمصيرها وهي تُتمتم: «مُولْ الاولاد هاذا حالو».

حتى بعد أن انتقلت الى بيتها الجديد، ظلت علاقاتنا متصلة، وكثيراً ما تُرسل في طلبنا لِنُقَيّل عندها. لالة نجية نسخة طبق الأصل من لالّة الغالية، داخلة سوق راسْها، وَصْوابْها ما يْقَدّ عليه حدّ. الدُّنيا بحال المنام والايام تتطيرْ، غير البارح وهي بنت عْويتقة.. شوف اليوم تبارك الله أولادها وبناتها تزوجوا وولدوا، وهي مسكينة ما زالا تتقوم وَتْطيحْ معهم، وسي ابراهيم عندها كلمتو فوق الراس والعين. لالّة نجية ماشية للجنة بعينيها مغمضينْ، مْسُوكْرة كيف تتقولو انتما ولاد اليوم...».

تعتيم:

اكتشفت، وأنا أقارب الثلاثين من عمري، أنني أكنّ حبّاً خاصاً لأختي لالّة نجية. وُدّ عجيب، عارم، يحاصرني، يحملني على زيارتها بغير

سبب. أتحدث معها في شؤون عابرة ونسترجع سوية ذكريات من طفولتنا. فجاءةً، أنتبه إليها بوجهها البشوش المدوّر، وسِمْتها الوقور الذي يطبعه حزن دفين أثناء ما تصمت. كأن عماوة غشيتْ عيني من قبل، فلم أكتشف نجية التي أحسها الآن قريبة إلى نفسي، متواصلة مع هواجسي وحالاتي المزاجية. هي لم تذهب إلى الكُتاب أو المدرسة. علمتها أمنا الطبخ في سن مبكرة. ودربتها على شُغل البيت فتعاطت لدور المرأة ــ العروس قبل الأوان، متغافلة عن طفولتها ونزواتها. وكنا ــ أطفال الدار الكبيرة ــ لانشركها معنا في لعبة «الدخلة على العروسة» ولا في مغامرة اكتشاف الكنز المخبوء تحت زاوية من زوايا البيت المظلمة. وهي، من جانبها، كانت تعرض عنا وتؤثر أن تبقى بصحبة نساء الدار، تستوعب أحاديثهن وهمومهن.. وحينما تناديني تستعمل وصف «الزلوعي» أي الطفل الجسور الذي لا يحترم المواضعات ولا يحترم مَنْ هو أكبر منه.

كأنما وضعتها، طوال ثلاثين سنة، في منطقة ظلّ من اهتماماتي وتواطؤاتي: هي أختي وكفى. هادئة، متعقلة، تمشي مُقتفيه خطوات الأم. أليس ذلك هو ما جعلها ممسوحة من دائرتي الضوئية المرسومة بخطوط الحركة والشيطنة والعِراك والفضول ؟

حبل سُرّي كان يربطها بأخي الطايع. وبرغم ما بذلته من حيلة ومكر، بعد مجيئي إلى الرباط، لأكسر طوق السكونية التي رانتْ على نفسية الطايع منذ غادر فاس، فإنه ظل دوماً الدريئة المشتركة لِنبَالنا: أنا أريد أن أرجعه إلى سابق زلوعيّته وشيطنته، ونجية والأم تشدّانه إلى دور الولد الرزين، حامي الأسرة قبل الأوان.

أتذكر. أسترجع بعض المشاهد واللحظات. أتوقف عند تعابير الوجه. بعض الكلمات اقترنت، في مخيلتي، بِنُطقها. أنظر إلى قامات أولادها وبناتها.. وهي، لم تكد تتبدّل. مُتكتِّمة حتى في تغيّرها ! عدة سنوات مرت قبل أن نعرف أن المرض يهدد عينها اليمنى بالعمى. دائماً، هنا في بيتها، تختفي

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

بمن جاء، تعرض مساعدتها، تتحدث بطريقة تبدو معها محصنة ضد الحادث والطارىء، فتعيدنا إلى مناخ بيت فاس الكبير ونكهته المضمّخة بالرَوْقِ والطمأنينة. ثلاثون سنة مرّت وهي هنا كامنة وراء هذا الحشد كله من وجوه وأصوات «سلالتها» الصغيرة، وكأنها أخت كبرى عليها أن تستمر وراءهم حتى الأزل، بمن فيهم من تزوجوا، يودعون عندها أولادهم وبناتهم عندما يسافرون. استمرارية يميّزها نوع من اللامبالاة يطبع سلوك من يحيطون بلالّة نجية... لامبالاة بدأت تُثير أعصابي عندما تنبهتُ إلى حب أختي الغافي بأعماقي. عَوَّدَتْهُم على أن تفعل كل شيء، أن تكتم الشكوى، أن تختزن ما يؤلمها في صدرها إلى أن تجد فرصة تفرج فيها عما اختزنته وكثيراً ما يكون البوح للالّة فاطمة، معاونة الأسرة على أشغال البيت والغسيل منذ سنوات طويلة. حينئذ، تحكي التفاصيل وهي تبكي: «.. تَنَبْكي على راسي وأنا عايشة، إيلا متّ ما نلقى اللي يتفكّرني...»، وترد لالة فاطمة: «لِواهْ، قياس الخير عليك، الله يخليك لَوْليداتك». تُردّ نجية وهي مستمرة في البكاء: «ما بقاوْ ولاد الربح في هاذ الزمان... أمّي، أمّي عندهم غيرْ بالفم...».

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

عندما أحاول أن أفلسف المسألة أقول: الشيء المستمر دائما يستقر داخل هذا النوع من العلاقة. نألُفه فنهمله. ليس تماماً. نتكىء عليه ونعتبره ثابتاً فنستريح، جزئيا، من تلك المواجهة المفتوحة مع جميع تفاصيل الحياة والعلائق. كل علاقة تستتلزم جهداً، حضوراً، استنفاراً للعقل والحواس. نمتلىء بصخب طاحن للأعصاب ثم نكتشف أن علينا أن نبدأ العملية من جديد صباح كل يوم.. من ثم الركون إلى عناصر «الاستمرار» في حياتنا وإغفال الجهد اللاّزم لاذكاء جمرة التواصل. غير أننا كثيراً ما نستيقظ، على جفوة اللاّتفاهم وصدإ الرتابة، لِنُعاين أن المستمر أيضا مفقود...

ليس هذا الكلام مقنعاً ، أو بالأحرى، لا يلامس جوهر ما أدركته بشمولية شعورية، حين تساءلتُ أول مرة، كيف استمر حبي لأختي، غافياً طوال تلك المدة.

وجدتُها وحدها في البيت، بعد ظهر ذلك اليوم. لعله يوم أحد لأنني ظللت نائماً حتى الساعة الواحدة بعد ليلة أمضيتها، وحيداً، في الشّرب واجترار الأحداث، ومحاولة فهْم ما وقع. حالة كانت تلمُّ بي ولا أستطيع التخلص منها.. فجأة يهتزُّ كل شيء من حولي. أحدّق فلا أرى إلا الهياكل القديمة، إلاّ ما ظننتُ أنه الى زوال. جهدي وجهد الآخرين يعود إلى نقطة الصفر. لاشيء تغير. لاشيء يوحي بالتغيّر وفق ما كنا نحلم به. اشرب وأعيد. أرفع قبضتي لأضرب شبح المؤقت الذي استحال إلى دائم. أتذكر الأصدقاء الذين هم في السجن أو المنفى، ولا أكاد أفهم ...

فتحتْ لي الباب وقد وضعت شالاً من الصوف على كتفيها. عيناها منتفختان قليلاً من أثر النوم، وصفرة خفيفة تغمر وجهها. لم أفهم، أول الأمر، كيف أنها وحدها في البيت واليوم يوم أحد. شرحتْ لي بأن هناك مناسبة عند أحد الأصهار، وأنها متوعكة فبقيت لتستريح. حاولت أن أكون مرحا معها كما اعتدتُ في السنوات الأخيرة، لكنها لم تستجب كثيراً، ربما لأنها أحست أنني أيضا على غير عادتي، مقلوب المزاج. ران صمت ثقيل قطعته قائلا إنني سأحضّر لها برّاداً من أتايْ الفاعل التارك، وسأقرأ على رأسها لتصحّ من توعكها.

بعد فترة، ونحن نحتسي الشاي، قلتُ لها هل تعلمين بأنني أحبك أكثر مما يحبك أولادك وربما أكثر مما يحبك سي ابراهيم نفسه ؟ تمهّلت قليلاً قبل أن تنبر: «إيوَا خَيّي الله اللّي عالم بالقلوب».

أحسستُ أن تصريحي أخطأ الهدف. حاولت أن أتدارك فقلت لها بأن نوع الحياة الذي أعيشه يجعلني دائما أجري وراء سراب، مهملاً الحقائق التي تعيش على مقربة مني. وأنني، عندما أفكر بِتِلْقائية، فإن صورتها وصورة أمي تقفزان إلى المخيلة والوجدان فأناجيهما ولا أستطيع ــ في الواقع ــ أن أعبر لهما عن تعلقي وحبي بما فيه الكفاية.. وجدتني أتكلم مندفعا بحرارة مفاجئة، مذكرا نجية كيف أنها وضعت شهادتي الابتدائية ثم الثانوية في إطار

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

وعلقتهما ببيتها، وكيف كانت تحث أولادها وبناتها على أن يصبحوا مثل خالهم.. ذكرتها كيف كانت تغدق علي النقود والشوكلاتة والملابس، وتطبخ لي، بعد وفاة الأم، أطباقي المفضلة.. كنتُ أغرق في التفاصيل وأردد بين الحين والآخر: ماذا يبقى لنا سوى هذه العواطف التلقائية التي نعيشها ونختزنها ؟

ران الصمت من جديد، ثم جاءني صوتُها في إيقاعه الهادىء المتساوي «شْنوُ عندك اليوم ؟ يَاكْ ما شفتِ شي منامة البارح ؟ خير وسلام..إيوا خَيّي أنا شحال من مرة قلت لك، والوالدة حتى هي الله يرحمها عْياتْ ما تقولك، باللّي تَيْخصك تتزوّج. بَرَاكا. اللّي ثم راك شفته، هنا وفي الخارج. الواحد لازم لُو يعمل محلو ووليداتو. هاذي حكمة ربانية ما عندنا لاَيَنْ نهربو منها. انت راك قاري وفاهم كْثَر مني، وأناما نبغيكش تبقى بوحدك. ولكن انت تَعْرفْ...».

هل أنت سعيدة ؟ سألتها. ابتسمت. تنهدت ثم استغربت أن أطرح عليها هذا السؤال بعد أن ختمت حياتها أو كادت، بعد أن ولدت أحد عشر ولداً وبنتاً، معظمهم تزوجوا وولدوا بدورهم. وهل لديك دواء يسعدني، استفسرت ضاحكة. وَقُلْ لي أنت أولاً ما هي السعادةلأرى ما إذا كنتُ قد عرفتُها... واستمرت تتكلم بطلاقة وبنغمة لا تخلو من مرارة عن طبع زوجها، عن أولادها وبناتها وعن الأقارب. غمرني شعورُ غبطة وحنان وأنا أتساءل لماذا لم أسْعَ من قبل إلى مثل هذا التواصل مع نجية. نجية التي كنت أثَبّتها داخل إطار وأتعامل معها ضمن تصنيفات العواطف العائلية، تتحول الآن أمامي إلى إنسانَةٍ «ناطقة»، لها آراؤها وملاحظاتها وتقييماتها للناس وللدنيا. أية لغة تلجأ إليها في مثل هذه الحالة عندما تكتشف أنك أمام إنسان موجود في جوهره متشبثا بحياته كما عاشها، لا يتنكر لها ؟ أبدا لم أحس مثل هذا الثقل الوقور الذي بدتْ لي به نجية عند أصيل يوم الأحد ذاك من خلال حديثها ونظراتها. كانت تردد أنها سعيدة لأنها تحمل في قلبها قناعة الآخرة. لكنني عندما ألاَحقها بأسئلة عن تفاصيل حياتها،

تتدفق بانتقادات شاكية. فزوجها ضيع فرصاً كثيرةً، وأولادها وبناتها يأخذون ولا يعطون، والناس طامعون فيك ما دمت تملك. ما عدا ذلك، كل شيء يفوت، وكل الآلام والمصائب نتحملها وننساها في غمرة الحياة التي تجرفنا. المهم ألا نلتجىء للآخرين. عزة النفس رأس مال المرء... هي تتحدث وأنا أستمع في دَهَش. أسئلتي تبدو بدون وزن أمام صوتها الواثق ممّا تحكيه.

في حديثها، قرأت بين الكلمات حبا شفيفا لزوجها سي ابراهيم، تنامى عبر العِشْرَةِ ورحلة العمر. قرأت انشغالاً للبال بسبب الأولاد والبنات الذين يفتقرون للتعاطف ويتطاحنون بالكلام ويتدثرون بمعاملات الرياء. لكن سعادتها، هي، إنما تجدها في بسمات الأطفال من أحفادها وحفيداتها. أنظر إليها وأنا أبتسم في خبث، مذكرا إياها بأنها، رغم كل شيء، تتألم وتبكي حينما يبلغها كلامُ سوء في أولادها وبناتها. تتنهد وهي تقول: «قلبي ما يْهنيني. قالوها لْوالى: يَدّيك مَنَّك ولو كانت مَجْذامة».

هل كنتُ، في ذلك اللقاء، أُحادِثُ، عبر نجية، الأم لالّة الغالية التي اكتشفت أمام قبرها ــ قبل أن يُهيلوا عليها التراب ــ أن بأعماقي أشياء كثيرة فاتني الافضاء بها ؟

الطايع في حومة الكبار:

عندما أتكلم الآن، وأنا في العقد الخامس من عمري، أحس أن كل ما تلفظته من قبل لا يرتقي إلى النغمة الصحيحة.

الآن انجلت الأوهام، أو هذا ما أحسبه على الأقل، لأنني أستقبل الأيام بدون أن أنتظر منها مفاجآت سارة وبدون أن أتوقع تحولات تخُض الزُنْبُرك المترهل في داخلي، لتُعيد له النبض والتحفز. حالة غريبة بالمقارنة إلى ما كنت عليه قبل ثلاثين سنة. كأن دائرة الحياة انغلقت من حولي وأنا مستمر فيها بقوة داخلية لا أعيها تماماً. هل أستمر في العيش من أجل الأولاد، أم لأن التفرج على ما سيحدث يجتذبُني، أم استجابة للغريزة وحسب ؟

أنا في العادة لا أفتح صُنْبور الأسئلة والهواجس والتخمينات مثلما يفعل أخي الهادي . لا أقدر على التفكير بصوت مرتفع كما يقال، ربّما لأنني أصبحت سجين عادة التكتّم على مشاعري وإخفائها، والانغمار في الحركة متناسياً ما ألحظُه من تصدّع أو فتور. وقد يعود ذلك إلى أنني ألفتُ الصورة التي كوّنها عني الآخرون بدءاً من زوجتي. معها، لا أستطيع أن أفضي بما يترسب في الأعماق. حديثنا مُغْرق في العموميات وفي ما يتصل باليومي، ضمن المبادىء الفضفاضة التي «جمعتنا». الآن، أدرك أن زواجنا، غرامنا، قصتنا، انْتَسَجتْ داخل شرنقة المبادىء وإغراءات المناخ العام. قد أكون مخطئاً في هذا الاستبطان، غير أنني ما أزال أذكر فورة الاستقلال، واشتعال العواطف، وحماسنا، وتوقنا إلى أن «نُشيّد» ونُزحزح الجبال، ونطال السماوات.

كنت أحس الأعباء مضاعفة لأنني أحمل صفة «فدائي» بعد مشاركتي في خلية بالرباط. كانت الخلية الثانية قد اعتقلت وجاء دورنا. عرفت منظم خليتنا، من قبل، في اجتماعات الحزب. المهام التي أنيطت بي: مراقبة تحركات بعض مقدمي الحومة، توزيع المناشير، تجميع بعض الأخبار. حين اعتقل أحد أفراد خليتنا، صدر الأمر بأن أختفي خارج الرباط. لم أجد سوى سي إبراهيم زوج أختي، لمساعدتي. بعثني عند أحد أبناء عمه بالقرب من مدينة القنيطرة فسكنت عنده طوال شهرين لم أتحرك خلالهما. مرت المحنة وأعلن الاستقلال، فعدت إلى الرباط والتحقت بمدرسة حرة معلما للتلاميذ. هناك التقيت زوجتي، فكان التقارب عبر لغة المبادىء انذاك. قد لا تصدقون هذا الكلام لأنكم لاتتصورون ذلك المناخ الذي جعلني «أهرب» من نساء أخريات كُن أقرب إلى مزاجي وذوقي الغريزي، لأرتبط بامرأة وجدتُ في كلامها ما يلائم حماسي ومثاليتي. شَرَكُ الغرارة الذي لا نستطيع له دفعاً، سيقول الهادي. ولكنني أحسبني كُليّاً في قرارتي، معانداً لماضيّ، معانداً لطفولتي ومستجيبا لعنصر متطرف في شخصيتي.

ما جدوى أن أحكي عن حبي المبكر لابنة الجيران عندما جئنا إلى الرباط ؟ وعن تنقلي بين الدكاكين والمهن لأعول أمي وأخي ثم لأسدد نفقات تعليمه مكتفياً أنا بالشهادة الابتدائية ؟ ما جدوى أن أحكي عن تلك الفتاة اليهودية التي تعلقت بها عندما كنتُ أشرف على دار الخياطات التي كلفني بها تاجر مشهور في ذلك الوقت ؟ جزء من طفولتي في فاس. مباريات كرة القدم صحبة الهادي في الرباط. غاراتنا على الجنانات والعَرْصات الواقعة، آنذاك، في ديور الجامع وحي الليمون. اشتغالي بأوطيل «فاليدا» وارتداء البدلة والطربوش، والاختباء تحت الكونتوار عندما ألمح واحداً من أصحابي مارّاً بالقرب من مدخل الأوطيل... مشاهد قلما أسترجعها أو أدَغْدغها بيني وبين نفسي. يقول لي الهادي في صيغة متفلسفة وهو يقصد التعريض بي: «... أظن أن الكثيرين يشقون لأنهم عاجزون عن استرجاع طفولتهم وإدماجها في حياتهم الراهنة. ما عاشُوهُ في الطفولة كأنه وقع لغيرهم. ربما لأن الطفولة أقل جديةً مما يتوهّمون أنه لازم للحياة...».

هل يُعقل أن أستأصل طفولتي، طفولتنا، من الذاكرة ؟ إنه يلتذّ بأن يصوغ عبارات يلخص بها حالات الآخرين. أستمع إليه وأبتسم.. ومع الأيام أحسني أغوص تدريجيا في سديم العلائق المكرورة والمواضعات الاجتماعية. والآن لا أستطيع أن أحلل شيئا يتصل بجسدي وحياتي الزوجية. لقد تعودت على أن أعْطي الأسبقية لما هو «عام»، يمس المجتمع في كليته. الزوجة غمرتني بعواطفها ووقفت إلى جانبي في اندفاعي، حدّ التدهور، لتحقيق ما حلمنا به أيام المقاومة. انغمرت في النضال بما يشبه الهوس، على حساب حياتي الخاصة كما كان يلاحظ الهادي من حين لآخر. كيف ألخص ذلك الحماس الذي كان يلهيني عن كل شيء ؟ أظن أنني سأكون قريباً من لغة تلك المرحلة لوقلت عنه «النضال من أجل الهدم والبناء من أجل التغيير». هذا ما تعلّمناه في الحزب والنقابة: نهدم البالي المتجمد، ونُشيّد الجديد الملائم لتضحيات الجماهير. عشرون سنة من الحركة المتواصلة. أهرب من البيت إلى البورصة ومقر الحزب. أدمنتُ الاجتماعات والتجمعات

واللقاءات. كانت النشوة تستبدّ بي وأنا أرى جموع العمال والموظفين والمثقفين والتجار تتجاوب مع خطاطاتنا وشعاراتنا، فأعتقد أن التغيير بات وشيكاً.. وتأتي بلاغاتُنا وتصريحاتنا لتُرسخ نفس الاعتقاد وتوصي بمتابعة السير في خاتمة حفظناها عن ظهر قلب: «... ولا يفوتنا أن نُهنىء أنفسنا على هذه المكاسب مستحثّين الجميع على مضاعفة الجهد وعلى اليقظة لتحقيق المزيد من...».

داخل دوامة الحركة كنت أبذل كل وقتي للنضال والتعلم. قرأت كثيراً من الكتب والمقالات الاجتماعية والايديولوجية، وسعيت لتحصيل كل ما يساعدني على الاضطلاع بمهماتي النقابية والسياسية. كنت سعيدا باكتشاف الثقافة التي تسند ممارستي وتُعوّضُني عمّا حرمَني منه انقطاعي عن التعليم المدرسي المنتظم.

عشرون سنة تعلمتُ خلالها أشياء كثيرة. غير أنني لم أكن أتصور أن تخفّ درجة حرارتي، ويهدأ الغليان إلى هذا الحد الذي أستطيع معه أن أتكلم عن سنوات «الهدم والبناء» بمثل هذا التباعد، بل والسخرية أحياناً.

الجمر فيّ تحول إلى رماد ؟

بل إن رمادي احتضن جمراً آخر هو الذي يجعلني أنظر إلى تحولاتي بنوع من المرارة والعنف. أنا الآن مثابر على قراءة القرآن والدراسات المبشرة ببناء مجتمع إسلامي تُبعث فيه حضارتنا التليدة الأصيلة. لست مُتعصبا؛ وما تعلمته خلال العشرين سنة الماضية أثناء الجري في حومة النضال واكتشاف الحقائق الحياتية، يجعلني بعيدا عن التشبث بوهم جديد. إنما هو ملجأ يمنحني نوعا من الاستقرار والعزاء، ويستجيب، ربما لنزعة عميقة في نفسي نحو التوحيد والتعالي. لا أستطيع أن أفسر كيف حدث ذلك التحول. أذكر فقط أن نُتَفاً كثيرة اختزنتُها من تجربتي جعلتني أبتعد تدريجياً عن نمط العيش المألوف لدى قادة النقابة والحزب وأطرهما الفاعلة. بدأت أتبين أن المسافة بينهم وبين من ندعوهم الجماهير، تزداد اتساعا. ولم يكن الخصوم عشوائيين في سياستهم كما كنا نُردّد. كانوا متنبهين لمصالحهم، مراهنين على عنصر

الزمان ومفعول القمعُ. مع الأيام اتضح لي أننا ننطح بقرون واهية. كأننا سيزيف يدفع صخرة على رأض مسطحة لانتوءات فيها ولا هضاب.

خلال أحد لقاءاتي مع قادة الحزب والنقابة طرحتُ بعض هواجسي وتخوفاتي. أجاب أحدهم: «إذا كانت الشروط الموضوعية لم تتوافر بعد، فإننا لانستطيع أن نُغير الأوضاع. هذا قانون التاريخ وعلينا انتظار نضوج تلك الشروط».

وقال زعيم آخر: «نحن نحمل مشعل الحقيقة، والتاريخ سيحكم بصواب دعوتنا. لذلك لا تقلق ممّا تراه، فالجماهير ستكتشف صحة ما طرحناه، وتُعرض عن أكاذيب النظام ووعوده الفارغة...».

ما بدأت أكتشفه أنا، أكبر من أن تُفسره تلك التحليلات. كان معظم المناضلين والأطر النقابية، من حولي، يعيشون التبدل من خلال تطبيع العلائق مع من كنا نعتبرهم خصومنا. المغازلة تأخذ أشكالا مختلفة، يتلوها تبادل الزيارات، ثم الوساطة لقضاء مصالح العائلة... وفجأة، ينتقل أحدهم إلى منصب رسمي بدون أن يُخبرنا، فتأتي الأوامر، من القيادة، بأن علينا ألا نقطع «الخيط» معه، فقد يُفيد المنظمة !

عشرون سنة حدثت فيها تغييرات كثيرة، متلاحقة، رعناء، داخل المجتمع كله، لكن خطابنا استمر كما هو مع تحويرات ظرفية. والتجمعات تقلص عددها من المئات إلى العشرات، والعياء ظهر واضحا على أصلب المناضلين.

كانت زوجتي، منذ عدة سنوات، تحتج على إسرافي في الاجتماعات وإهمال الأولاد، وتُنبهني إلى أن كل مناضل «عمل علاش يرجع»، وأن عليّ أن أفتح عيني لأرى حقيقة ما يجري؛ فكنت أعتكف بضعة أيام ثم أعود إلى الحلبة مدفوعاً بشيء ثاوٍ في الأعماق. لكن الشرخ كان يستعصي على المسكّنات جميعها.

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

علاقتي بالهادي أيضاً اتخذت طابعاً حادّاً، عدوانيا، يتعدى نطاق التنافس الذي كان بيننا. أحار في تحديد شعوري نحوه، لأن حبي له كان بدون حدود منذ الطفولة، وازداد عندما سلك سبيله إلى الجامعة بمساعدتي. لكننا اختلفنا في التفكير ونمط العيش. أصبح نقيضي: دائما يفترض أشراكاً منصوبة أمامنا، وعلينا أن نتجنّبها لكي لا يُغَرَّرَ بنا. لابد من تحليل كل شيء، يقول. والمبادىء، على أهميتها، لا تكفي لحل المشكلات، في رأيه. أنا مندفع وهو مُتأن. أنا متقشف مع نفسي وجسدي، وهو مفتون بالجسد واللذة. أصفه بالأناني فيقول: فعلاً، لا يمكن أن نعيش بدون أنانية. أحثّه على الزواج، فيرد بأن الزواج ليس غاية، وأن التجربة أوسع من ذلك، والزواج صورة من صور البحث عن توازن العاطفة والجسد... دائما يُعطيني الانطباع بأن حياتي منغلقة، موضوعة في قماط، وبأن زواجي لا يستجيب لرغائبي.. في حين تبدو حياته مشرعة النوافذ على ما تحتويه الدنيا من تفاصيل ومناطق غرائبية مثيرة.

www.liilas.com/vb3

MALLOULI

صارحته بالتصدع الذي بدأت أعيشه في الفترة الأخيرة. سكت قليلاً دون أن تفاجئه اعترافاتي، ثم قال بطريقته الخاصة في التعبير:

«.. أنت الآن بدأت تدرك أن المناضلين لن يصلحوا، بالضرورة، للسياسة عندنا. السبب ؟ قد لا يُقره العقل والتفكير الجدلي، لكن يدعمه واقع الحال. فأنت لا تنتمي إلى عائلة كبيرة، إلى رموز في الجاه والمال والشرف، تُدعمك وتقف وراءك في رحلة العبور من النضال إلى السياسة. ومثل تلك الرموز ضرورية، الآن، بعد أن تبدّد الحماس وتصدّعت المبادىء، وطفتْ المصالح على السطح. ماذا تستطيع أن تفعل بإيمانك وإصرارك وقد تبدّلت دورة الأفلاك فانتقلتْ من الاحتقان الايديولوجي إلى جزْر الافراغ ؟ انتظر. قد يكون لك حظ إذا مدّ الله في عمرك، فتشهد من جديد، دورة امتلاء. لكن، من يضمن أنها ستكون على ما ألْفتَ من أنغام؟».

سَرَقَتْنا العشرون سنة. أحسني مخدوعا ولا أستطيع أن ألْقي التبعة

على أحد. أشعر بالنفور من نمط عيش النخبة ومن تفشي العصرية وأدواتها. أجد نفسي أكثر في انكفائي وقراءة القرآن والصلاة مع الجماعة. عدة أشهر وأنا أحس الانهزام والحرمان بسبب العجز عن متابعة الطريق التي نذرت نفسي لها. اكتشاف التناقضات حيث لا تتوقع، وتَراكم الصدأ الذي يُرسّب في الأعماق تكرار الأشياء والأحداث، ضخما لدي ضُموراً معنويا أشَلّني. بدأت أتطلع إلى الانكفاء بأقل ما يمكن من الخسائر، أي أن أعيش دون لجوء إلى الخصوم، ودون مدّ اليد للحصول على نصيب من كَعْكة ما يسمونه عهد الرفاهية والاستقرار. هذا هو التحدي الذي أعيشه الآن: الاهتمام بالعائلة وضمان الستر إلى أن يحين موعد الرحيل. أحيانا تستيقظ في أعماقي جَذْوَتي الغافية، فأتحول إلى متتبع لأغلاط خصومي وسقطاتهم. لكنني عاجز تماماً عن أن أفعل شيئا، لأنني عاجزٌ عن أن أخاطب الناس بخطاب لا يمتّ بصلة إلى ما يعيشونه ويتطلعون إليه.

www.liilas.com/vb3

جسدي لا أستطيع أن أتكلم عنه.

MALLOULI

في لحظات الكآبة والشعور بالوحدة، أفكر كثيرا في الأم، وفي الموت. أقول إن عليّ أن أهيىء نفسي للقاء الرّب.

أثناء آخر مرة زارني فيها الهادي، كاشفته بما يخامرني،ابتسم وهو يقول: «يخيل إليّ أن أحسن طريقة نهيء بها أنفسنا للموت، هي أن ننتظره وكأننا سنرتاد مهرجاناً للضحك..» أكره ردود فعله، لكن كلماته توقظ في نفسي حنينا إلى أيام الصفاء والتواطؤ، حين كان يجعلني أضحك في أحلك الأوقات.

تعتيم:

رجعت بعد الظهر إلى البيت بعد حصة مادة التاريخ، أول سنة التحقت فيها بالمدرسة الثانوية. كان الخريف بكَلَحه وغيومه، والرباط برطوبتها اللزجة ينشران غلالة دبقة تلف النفس والجسد لتجعلك مُنهكاً، مفكك المفاصل. طرقتُ الباب عدة مرات ولم يُفتح. انتظرت قليلاً ثم

عاودت الطرق.أخذت أتصنت، وخُيل إليّ أن هناك أصواتاً تعلو وتنخفض كأنها في خصام أو جدال، من بينها صوت أمي. لم أكف عن الطرق. وبعد فترة جاءني صوت الأخت في استنكار لهذا الطارق المتعجل. حاولت أن تأخذ مني محفظتي وأن تصرفني لألعب في الزقاق، لكنني ألححت على الدخول الى المرحاض.

في الغرفة، كان الطايع يبكي ويشهق بصوت مرتفع ويقول كلمات لم أتبينها. ومن حوله الأم والأخت تمسكانه وتمنعانه من الخروج. أول مرة أراه فيها باكيا، عنيفا في حركاته، وأنتبه إلى أن صوته قد اخشوشن. لم أجسر على أن أسأل. كانت أمي تشير إليّ أن أبتعد.

نزلت إلى القبو وأنا نَهْب لكل التخمينات. كان الطايع قد بدأ يعمل في فندق «فاليدا» الذي ينزله كثير من الأمريكان. وكان سعيداً بعمله لأنه استطاع أن يكسب ثقة الزبائن وأن يحظى ببقشيش سخي من أبناء العم سام. كان هو وأمي اللذان قررا أن ينقطع عن الدراسة ليساعد في إعالتنا فلا نثقل كاهل سي ابراهيم. وعليّ أنا ـــ التلميذ النجيب كما كان يسميني ـــ أن أنوب عنه في تحصيل العلم. سرعان ما دخلت في علاقات جديدة مع رفاق المدرسة الثانوية، وبدأت أبتعد قليلا عن الطايع الذي كان يخوض تجربة العمل والحياة في نهم شره.

كل ما خَمنْتُه عن مشهد بعد الظهر كان بعيدا عن واقع الأمر. خديجة، ابنة الجيران، ابنة خالتي كنزة كما كنا نناديها، هي لا غيرها، سبب هذا المشهد الرومانسي الذي لم أتوقعه بالرغم من معاينتي لبعض الامارات. لعلني كنت ما أزال أعتبر الطايع طفلا مثلي مع أنه كان في عز المراهقة. ولعلني كنت أعتبر لقاءات صبيان وبنات الدار محكومة بلعبة التمثيل والتسلي، ولا يمكن أن تُجاوز تلك الحدود لتنقلب إلى تجربة جدية. خلال لعبة الدخلة على العروسة، وخلال أسمارنا البريئة بمناسبة الأعياد والأفراح، كنا نحن صبية البيت وصباياه، نلهو في طلاقة وتعاطف، ونكتشف متعة الضحك مغرقين

في تقليد لغة الكبار وحركاتهم. كانت ذاكرتي ملأى ما تزال، بما التقطتُه في فاس خاصة عندما كان خالي سيد الطيب يصحبُني معه إلى النزاهة، فأختزن ما يتلفَّظ به أصدقاؤه أثناء تعليقاتهم الاباحية على قصص ألف ليلة. بدوري، كنتُ أتوجه إلى خديجة (كانت بيضاء، فتخاء، رموشها طويلة، ولها رَفّة أهداب مغرية عندما تخجل وتتورد وجنتاها) وأصيح:

«يْخلّي لي الحوت البُوري. أنا تنموتْ في الجبَن الطري. أنا عبد الحلوى الشّبّاكيّة...».

وتتعالى الضحكات والتعليقات، وترف رموش خديجة وهي تسترق النظر إلى الطايع الذي يُداري حرجه قائلاً: «هذا حْديدّانْ الحرامي هاذ الهادي، ما عرفتشي مْنَاين جابْ هاذ الشي...».

قبل العشاء، كان الطايع يتسلل إلى الدرج ويقعد مع خديجة يتحدثان، وخالتي كنزة تلحظهما، راضية، من مجلسها بصدر الغرفة؛ ومن حين لآخر ترفع صوتها ليسمع من بالسفلي:

«مَا عْييتِوش من الهَدْرا؟ يْقَدْكم من تْوَشْويش والهَدرا ف الشُّونْ...».

الآن، أعلن والدُ خديجة أنه زوّجها للفقيه الحاج عبد السلام، الخطيب المِصْقاع، والمحدّث البارع الذي يسكن في الدرب المجاور. خديجة تبكي في الفُوقي، والطايع يشهق في السفلي لأن «يدّيهم طاحت في التراب»، وكلمة الأب هي العليا، والطايع ما يزال مراهقا بدون عمل «يحمَّر الوجه» ولابد له، هو العارف بدواير الزمان، أن يؤمن لابنته مستقبلا لائقا...

مايزال ذلك المشهد عالقا بذاكرتي يثب إلى ذهني كلما فكرت في تجربة الطايع. شيء ما، يُوهِمُني بأن الأمور كانت ستكون مختلفة لو أن تلك البداية اختلفتْ.. لو ماذا؟ لو أنه لم يكفر بالحب ولم يحتكم إلى عقلنة العواطف والعلائق ؟ كأنّما ـــ فيما استقبل من حياة، وبقدر ما لاحظتُ ـــ أراد أن يَئِد في نفسه ما قد يجعله ضعيفا، هشّاً، مُحبَطاً في تجارب القلب والجسد. حياته كلها سيختزلها إلى التفاني في حب الوطن، وخدمة «الصالح العام» !

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

وبدأت ألاحظ أن التيار الواصل بيننا، أخذ يتعرض لانقطاعات مفاجئة، فلا نكادُ نجد كلاما نتبادله. نلفّ وندور. ينتقد الجميع ثم يلُومُني لأنني لم أعد أهتم به.. أؤكد له عكس ما يقول فلا يُبارح الارتيابُ عينيه. أقول له إن المناخ العام هو الذي يجعلنا.. يُقاطِعُني في نرفزة لأنني دائماً ألقي التَّبعة على غيري. أصمتُ. يَحْرُنُ. يظل التوتر قائماً بيننا. كنت، مع ذلك، مُوقنا بأنه يحبني مثلما أحبه، لكن اللاّمبالاة عرفت طريقها إلينا.

كيف حدث ذلك ؟

لست أدري، مثلما أنني لا أدري كيف اكْتَسَحَتْني اللاّمبالاة تجاه الكثير من الأصدقاء والصديقات والعشيقات، وتجاه العديد من الظواهر.هل أقول هي العشرون سنة التي يعتقد الطايع أنها الحاجز الذي حجب عنه رؤيةَ ما كان يتحوّل ويتوالد ؟

على العكس منه، عشت تلك الفترة دوما كأنني داخل كابوس تتناسل مشاهِدُهُ المفزعة وتتلون أقنعته بدون أن يفقد أبدا، في ناظري، كُهُوبته ورُعبه المبتسم. كابوس أنيق. كابوس مُمَثِّل. كابوس بألْفِ شكل، لا تفارقه الابتسامة حتى عندما يضغط بقوة على رقبتك.

عشت العشرين سنة في توتر دائم يتوزّعني الحب والكراهية، لكنني لم أكن قط لامُباليا، مثلما الآن، بالنسبة لكثير من الأشخاص والأشياء.

يستعيد القلب ارتجافاته وترتجّ الأعصاب المرتخية عندما ألتقي أنَاساً لا يُموهون لاظهار انهزامهم نصراً. برغم الأصباغ والأقنعة التي يلجأ إليها الجميع الآن، تجدهم لا يفقدون وعيهم، ولا يتهافتون على لعبة الكلام المُزَلّق.. كلام يعين على بيع الذات، وتذويب قيم الرفض. أحدهم قال لي، من داخل جزيرته المضيئة: لا نستطيع توقع ما ستؤول إليه الأحوال، لكن ما يحزّ في النفس هو أن لا أحد يلتفت إلى عناصر المساخر الملتصقة بما نعيشه من حالات غنية بتناقضاتها: لذلك نعيش محرومين أيضا من الضحك على أنفسنا...».

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

الضحك يقترن عندي بالطفولة، وأنا مسرف في حب طفولتي. اتخذت من الضحك تسليةٍ وأعطيته أشكالاً متنوعة. في لحظات الكآبة وفترات الرتابة والتكرار، ألتجيء إلى الضحك فيصبح العالم مُبَرَّراً بكل لُبُوساته ومسوخاته. أحياناً تُراوِدُني فكرة غريبة أستبعدها إلاّ أنها تلاحقُني: ابتعدت عن أخي لأنه وأد طفولتَه وأعرض عن مخزوننا من الضحك المشترك !

أيُعقل هذا ؟ أن يحملني تعلُّقي بطفولتي على مجافاة الطايع الذي تنكر الآن لما عشناه سوية وأباح لنفسه أن يُعْدمه من ذاكرته ؟

تعليل فانْتيزي، ومع ذلك يغريني فأحاول أن أنبش جوانبه لأربط بينه وبين ما انتهينا إليه من تجابه ثم تباعد، ثم لامبَالاة.

أذكر زيارة الصيف الماضي. كانت قد مرت عدة أشهر دون أن أرى الطايع. لم يعد هناك الحافز الداخلي الذي كان يجعلنا نلتقي أكثر من مرة في الأسبوع. قلتُ إن عليّ أن أفضي له بما تجمع في دخيلتي، فقد تُسْعفُ المكاشفة على استرجاع الصفاء المندثر. لم تكن زوجته بالبيت، وأخبرتني الخادمة أنه في الصّالة الفوقانية. صعدت الدرج ثم نَقَرْتُ الباب فجاءني صوته بالعربية الفصحى: أدْخُلْ.

كان جالسا على السَّدَّاري وحوله مجموعة من الكتب والمجلات، مرتديا قميصا أبيض وجلاّبة شفافة من نفس اللون، والمخدَّة فوق حِجْرِه وعليها كتاب مفتوح. رفع رأسه مندهشا أول الأمر، ثم انتصب مُرَحّباً فاتحا لي ذراعية. هذا هو الطايع الذي قاسمته طفولتي يتراءى لي في هذه اللحظة كما عهدته.

لحظات وفاق مشرقة، لكنها مرّت كلمح البصر، ثم ساد الصمت. سألته عن أحواله. قال إنه يريد أن يعتزل ويتفرغ إلى دراسة كتاب الله، والى العبادة والتأمل، لأنه تَبَيّن أن عشرين سنة من حياته تصرّمتْ مثلما يتشرَّب الرملُ الماء، بدون أن يتحقق شيء مما كان يعمل من أجله: «..إنما

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

الخير والبركة في المتعلمين أصحاب الشهادات العليا الذين يعرفون ما فيه صلاح البلاد، ويُحسنون التكيّف واقتناص الفرص...».

قلتُ مصطنعاً الهدوء: لا داعي للتلميح وَحَشْيانْ الهدرا.. لماذا تتجنّب الحديث بصراحة ؟ كلما التقينا افترقنا وقد ازداد التباعد بيننا. أصبحت لقاءاتنا لعبة مقرفة نخبىء وراءها ما يوجعنا. لماذا تدفن فشلك، فشلنا، وراء الآيات والأحاديث واستحضار الموت ؟

قال: أنت أخي، أحْبَبْت أم كرهت. وأنا أكبر منك سنّا، ولا يعجبني فيك نكران الجميل والانجذاب إلى الغواية. أنت تعلم أنني تحملت من أجلك..

قاطعته بحدّة: لا تَعُدْ إلى ترديد هذه الأسطوانة. أنا لم أُرغمكَ على مساعدتي، ولست مستعداً لأن أصبح تابعا لك، جزاء ما أسديته لي. إنك تهرب من مشكلتك الحقيقية. افترض أنني لستُ أخاك. وأنني صديق رافقك في تجربتك وجاء اليوم ليتفهم معك ما عشتماه سوية أو على انفراد، ألا تكفّ عندئذ عن لعبة الغماية التي تلعبها مع أفكارك ومع ما استحصدته في مسيرتك؟

إذا كنت طوال عشرين سنة لم يراودك الشك في شيء، فكيف لا تُطيق الآن مواجهة الصرح المهتزَّ، وتسارع إلى الاحتماء بِيقينيَّات تظنُّ أنها محصنة ضد الشك ؟

قال: اسمع يا الهادي، كلامك ليس جديدا علي. أنا عشت وسط الفعل أكثر منك. خَبَرْتُ، وعاينتُ، وتعلمت. لم أكن أسمح للفتور أن يتسلل إلى نفسي. لكنني الآن لم أعد أستطيع. لك أن تُحلل كيفما شئت. أما أنا، فمقتنع بأن ثغرة عميقة نسفتْ ما كنت أحلم بتشييده.. أليس هذا شيئا مألوفا في التاريخ ؟

– مألوف. إنما ليس مألوفاً أن تتوقع خلو طريقك من الثغرات. قد لا يكون انهزامك سوى انهزام مؤقت. لماذا تدير ظهرك للوسيلة التي تعبر بدقة أكثر عن وضعيتك وعن مطامح من تلتقي معهم في الأمل والاعتقاد ؟

– أنت تعرف أنني كنت دائماً متديناً، فما الذي يضايقك في هذا التحول ؟

– ليس التديّن هو المعضلة.. إنما الدفاع عن الحياة هو المعضلة.. حياة الذين انحدرت من صُلبهم وأصبحوا هم وأبناؤهم مهددين بالقمع والقهر والموت البطيىء. لاحقّ لك، بعد عشرين سنة، في أن تعتزل معايشة الناس البسطاء الذين جعلوا منك رمزا وأملاً.. تنسحب لأن آخرين استفادوا وتعبتْ أقدامهم ؟

قال بنفاد صبر:

– اسمع. لستُ محتاجاً لوعظك. أنت وضعت دائماً الدين بين قوسيْن. افتح عينيك لتر الآن كيف تعيش النُّخب القائدة، وكيف يعيش عامة الشعب. تغيُّرات حتمية تقول لي، أنا معك؛ إنما لماذا لم نعرف كيف نتواجد داخل هذه التغيرات بنفس الفعالية التي كانت لنا من قبل ؟

www.liilas.com/vb3

– لأنك لم تشكّ حين وجب الشك.. استيقظتَ متأخرا !

– وَفّرْ وقاحَتَك واحفظ لسانك. أنا الآن أكثر رضى عن نفسي بالرغم من المرارة والاحباط. لا أنتظر شيئا. أفكر في لقاء ربي وتأمين العيش لأسرتي. ما عدا ذلك لا يهمني. أنت أيضا خيبت ظني: تعتنق الأحلام وتُمنّي النفس بانتصار ينبثق من داخل الهزيمة. انس أنني أخوك، أو بتعبيرك، أنني صديقك.. فأنا أصبحت منتميا إلى عالم آخر...»

MALLOULI

ودعته بفتور.

كان المساء يتقدم بعشوته رغم نُتَفٍ قرمزية من سحاب لم تشمله بعد عَتَمَةُ الليل الزاحف.. وكنت أردّد مع نفسي بيت شعر تذكرته في تلك اللحظة: «أن ننظر إلى الليل المهزوم حتى الموت، وأن نستمر في الاكتفاء بأنْفُسنا داخله».

يقول راوي الرواة:

أكثر من علامة تجعلنا نحس أن العالم كَبُر كثيرا بالنسبة لما كان مألوفاً لدينا. يبدأ هذا الاحساس حين نعجز عن احتواء جميع ما وقع وعن اختزاله في كلمات ومسافات. بدورنا نتيهُ وسط خضَمّ العالم ونلهث، عبثا، لنوهم النفس أن الأشياء لم تتبدّل عمَّا كانت عليه. لكن الدليل العكسي يأتي في شكل انفجار يجرف المقاييس والقيم، ويُخلخل العلائق. هذا ما وقع للهادي والطايع فيما أظن، بينما استطاع سي إبراهيم ولالة نجية أن يمتصا هذا العالم، كأنهما إسفنجتان، فلا يَبْدُوان على خلاف معه. ظلاّ في أحشائه دوما، لكن كأنما عاشا مُسَوّرَيْن داخل هذه الدنيا، تحرسهما عناية خفية من أن تُصيبهما شظايا الأيام...

لعلني تسرعتُ في الافضاء بتأملاتي هده حول ما حكاه لنا رُواةُ هذا الفصل. وقد لا يكون ذلك هو ما قصد إليه الكاتب لأن التعليقات التي أثبتها على الهوامش، تلح كثيرا على أن الزمان لا يُوَقّر أحداً، وأنه غير مطمئن إلى الطريقة التي تصوّر بها علاقة الطايع بالهادي. وفي رأيه ـــ إذا جاز لي أن أغامر بالاستخلاص ـــ أن استقصاء الحالات وتشخيصها، عملية لا تقف عند حد: فكلما توخينا الدقة، كلما اتسعت الدائرة وبرزت عناصر أخرى لا تخلو من تأثير. فتتوالد افتراضات تتقاطع مع الأولى. من ثم فإن الكاتب ـــ إلى جانب ما سجله من أحداث وتفاصيل، سلّمني مجموعة أوراق ملحقة، تشتمل على بلاغات وخُطب وقصاصات صحف، وربورتاجات مُستنسخة عن الاذاعة.. فوجدتُني محتارا عند الاختيار. لذلك آثرت أن أكتفي، هنا، بإيراد عيّنة فقط من تلك الأوراق الملحقة:

الأولى، عبارة عن بلاغ نقله الكاتب من صحيفة أو مذياع، أو لعله حاكى فيه ما كان شائعا ـــ وربما ما يزال ـــ من خطب وبلاغات كانت تُنْشَرُ على الناس خلال العشرين سنة التي يشير إليها. وغالب الظن أنه بلاغ صدر عن حكّام الوقت.

والثانية، وصف إذاعي مباشر لحفلة مسابقة الجمال العالمية التي كانت قد أقيمت بفندق هيلتون ــ الرباط.

والثالثة، مراسلة صحفية عن استغلال عيْن مائية بقرية «دَبْدو» (إقليم وجدة) سنة 1978.

بــلاغ بدون مناسبة:

نَحمدُه ونُعيد، وفي كل مناسبة نطلب عَوْنَه ونستزيد، على أن هدانا للمحجّة البيضاء، وأسبغ علينا العزة والنعماء، وفتح أمامنا كل الأبواب، فتذكروا يا أولي الألباب.

إن ما نبلغكم إياه، يُلغي كل ما سواه. وهو إن دلّ على شيء، ولابد له أن يدل بحوله وقدرته، فإنما يدل على تقدمنا المطرد، نُحققه بما أفاء الله علينا من خيرات، ووهبنا من نعم وقُدرات. ونحن إذ نزفّ إليكم هذه البشرى، توخيا للعظة والذكرى، فإنما لنحثّكم على اليقظة والتمسك بأذيال الفضيلة الربانية، دفعا لحسد خصومنا ونواياهم العدوانية؛ فجمال طبيعة بلادنا، وأصالة تاريخنا وأمجادنا، تجعلنا عُرضةً لطمع الحاسدين، وقبلةً لذوي الفتنة الناقمين. فحافظوا على التشبث بالصبر والوحدة، لتدوم لكم ولنا الحياة الرغدة، واعلموا أن المحاكم والجيش والشرطة والوزارات، ساهرة لحماية البلاد والعباد من اللغو والمزايدات، ولاعطاء الحقوق لمستحقيها،والضرب على أيدي منتهكيها.

إننا نؤكد لكم أننا على هذا الطريق القويم سائرون، وللمثل العليا حارسون، فلا تصدقوا ما تتناقله ألسنة السوء، ولا تُلقُوا بالاً لما يصيبكم من عنتٍ وبلاء، لأن نتائج سياسة الحكومة الرشيدة ستظهر حكمتها عند من يليكم من أجيال وأبناء.. فناموا هادئين، واستيقظوا مستبشرين، وكونوا لما نطلبه منكم باذلين، وصلّوا لربّ العالمين قانتين...».

مذيع يصف مسابقة الجمال.

سيداتي سادتي طاب مساؤكم. أحييكم من فندق هيلتون ــ الرباط، وأنقل لكم صورة صوتية عن مسابقة الجمال التي تقام هذا المساء بمشاركة حسناوات من

أوربا وآسيا وأمريكا وإفريقيا، كلهن جئن إلى بلادنا الساحرة البديعة، ليتملّيْن بمناظرها الخلابة، وليتنفّسن هواءها العليل فيزداد جمالهن نضارة، وبهاؤهن إشراقاً وحلاوة. وكما قيل، سيداتي سادتي، ما أروع الجمال عندما يَحوطه إطار من الطبيعة الفتانة. ولاشك أنكم ستوافقوني إذا قلت بأن هذا المهرجان الفينوسي شرف لبلادنا، وتعريف بإمكاناتها السياحية، وفرصة لحكومتنا الرشيدة كي تستفيد منه أكبر الفائدة.

سيداتي سادتي، أرى من حولي الوجوه متألقة مبتهجة، والجميع من مغاربة وأجانب، يتبادلون الأنخاب والكلمات والوشوشات، وينتظرون بداية العرض في شوق وتحفّز.

الآن، سيداتي سادتي، نغمات الموسيقى الحالمة تهمس تمهيدا لبدء العرض، وقد جلست هيئة التحكيم في صدر القاعة مواجهة للمنصة، من بينهم أحد وزرائنا السابقين عُرف بذوقه الممتاز، وخفة دمه، وسهولة جريان لسانه في فمه.. ها قد لاح أول قدّ ممشوق يحمل شريطا أبيض يمتد من الصدر إلى الخصر وقد كتب عليه اسم البلاد التي ينتمي إليها: «النامسا». ثم تتوالى القدود وجميعها هيفاء، رخصة، تُتَوّجُها وجوه صبوحة متلألئة.. يالهُ من منظر يبعث النشوة والدفء في صدور الرائين وقلوبهم.. آه ! لكم أتمنى، سيداتي سادتي، لعيونكم أن تكون إلى جانبي لأنني أحس بالعجز عن الوصف. ماذا أقول عن السيقان المنحوتة، والأفخاذ الملفوفة، والخصور الرقيقة، والنهود الممتلئة الباذخة ؟ الله أكبر ! يا للابتسامات الجذابة تملؤني ثقة وإيمانا بقدرة الباري الصّناع، وبإبداعه الذي لا يطاله إنس ولاجان. إن المرء لا يتمالك نفسه من أن يصيح من أعماق قلبه مصفقا لهذه الروعة، ولهذا الجمال. إنها لحظات خالدة يمتزج فيها الحسن بالنشوة، فتغمر هذه القاعة المسرةُ والهناء، وتصفو القلوب، ويتوقف الزمان !

نعم، سيداتي سادتي، إن العقل ليحتار، وإن الأدلاّء لَيَتيهون. ولا أفهم كيف سيستطيع هؤلاء العارفون ــ ومن بينهم وزيرنا الذوّاقة ــ أن يفاضلوا بين هذه الآيات الجمالية. إن كل واحدة منهن قادرة على أن تذيب الحديد بابتسامتها كما قال شاعرنا العربي، وإني لا أتردد، سيداتي سادتي، في أن أسجد أمامهن إقراراً بتفوقهن، وإثباتا لضعفي، وما أظنكم ستفعلون إلاّ ما فعلت لو أُتيح لكم، سيداتي سادتي، أن تحظوا بمشاهدة هذا الاستعراض الذي سيُتَوّج الجمال خلاله ملكته... التصفيقات

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

تعلو، والهمسات تُتَبادل، والفتنة تستحوذ على الألباب. إنني عاجز شخصيا عن أن أفضل إحداهن على الأخريات. حقّا، هذا فخر لبلادنا وأي فخر، أن تطأ أرضها أقدامُ تلك الحسناوات. وما أظن إلاّ أن التاريخ سيُسجل بمداد الفضة والذهب، هذه المأثرة التي تحققها حكومتنا الرشيدة في هذه الفترة، لِيَخْلُدَ اسم المغرب ضمن أحبّاء الجمال والخير والفضيلة. وما أجمله من شعار، سيداتي سادتي، نعتنقه ونستوحيه وسط أمواج الدنيا المتطاحنة المتهالكة على الماديات !

سيداتي سادتي، إنها لحظات قلّ أن يجود بمثلها الزمان: الأيدي الناعمة، الرخصة، تتمايل في حركات رشيقة لتنقل القبلات المنثورة من ثغور ملكات الجمال إلى الحضور الكرام.. وألاحظ أن معظم الأنظار تتركز على الحسناء اليوغوسلافية ذات العيون الخضر والصدر الريان... ولا غرو، فالجمال قد أقام معبده من قديم على جبال البلقان، وفي سهول مملكة صربيا قبل أن تصبح إحدى جمهوريات يوغوسلافيا الآن...».

عين تافرانت بدبدو تُحتكر من طرف من لاحق لهم فيها.

منذ أن فتح سكان دبدو أعينهم على عين تافرانت وهي تُستغل في سقي حدائق سكان قبيلتي قوبيان والقصبة. حتى إذا جاء عهد الحماية، تحول جزء مهم من المجاري إلى سقي بُستانيْ المراقب المدني، وتزويد مسابح «البيرو» بما تحتاج إليه من ماء، من أجل استحمام الجالية الأجنبية.

وبالرغم من أن «البيرو» لاحق له في هذا الماء، فقد فرض نفسه على السكان، وأخذ نصيب الأسد بقوة السلطة والبطش اللتيْن كان لا يتوانى في استعمالهما ضد كل من سوّلت له نفسه الوقوف في وجهه. فما كان على أصحاب الحق إلاّ أن يرضخوا للأمر الواقع. وجاء عهد الاستقلال، وظن الجميع أن هناك شيئا سيتغير، وسيسترجع كل ذي حق حقه، وستُرفع المظالم عن المواطنين. ومرت الأيام والشهور والسنون، وجاءت الأشياء على غير ما انتظره السكان، إذ ما لبثت أن تحولت مياه العين كلها، أو الجزء الأكبر منها، لا إلى سقي حديقتيْ الملحقة اللتيْن أصبحتا في خبر كان، وذكريات السكان، بسبب الإهمال والتفريط اللذين أصابهما، ولكن إلى استعمال ماء العين لريّ حدائق رجال المخازنية التي أحدثت هنا وهناك على القطع الأرضية الجماعية التي أعطيت لهم من أجل استغلالها كمرعى لتربية خيولهم، أو

زرعها بالحبوب لمساعدتهم على مواجهة «العلف». عوض هذا، فضل رجال المخازنية، مادام الماء موجودا ولا يكلف مشقة، أن يحولوا هذه المراعي البورية إلى بساتين يغرسون فيها الخضر والفواكه على حساب بساتين القبيلتين المذكورتيْن، الموجودة في المنحدرات، فأصبح هؤلاء الموظفون الذين يتمتعون بدخل، بحكم وظيفتهم الرسمية، يمولون سوق المدينة فيما تحتاج إليه من خضر، ويزاحمون البُستانيين الذين لا دخل لهم إلاّ ما يجنونه من أراضيهم. فهل ينتبه المسؤولون وعلى رأسهم المجلس القروي إلى هذه الوضعية فينصفون أصحاب الحق ؟

ذلك ما نرجو ومعنا جميع سكان دبدو.

صحيفة (...) يناير 1978

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

قلت وكم يهواك من عاشق

ارتعاب خفيف يعروني وأنا أرتاد الغرفة صحبتها. كنت أدرك أول الأمر أنها ليست جميلة، ثم تبينت، من خلال المشهد، أنها بشعة، مرعبة في بشاعتها: تتكلم بطلاقة وتعرف ما تريد، وبي تريد أن تحقق رغبة دفينة. إنها تعتبرني «لقطة» نادرة، فهي لم تضاجع من قبل مراهقا أو رجلا وسيما. بالصمت أحتمي، وبابتسامة الخائف أمام كلماتها المتدفقة وغزلها المكشوف. والشهوة، تلك التي تنامتِ في سريرتي خدرا لذيذا، تتبدد أمام هذا الرعب المنتهك.

لم أكتشف شيئا مما كان يتخايل لي في عالم شهوة الجسد، واكتشفت فقط رغبة امرأة بشعة، باحثة عن ارتواء. شاهدا كنت لعملية المفروض أنني أحد طرفيها ... طال المشهد ولم يتطور. قالت أخيرا وهي مستمرة في هذيانها:

يا خسارة ! الحِلْو ما يكملش.

كان ذلك في القاهرة ذات خريف. لم تكن الساعة تجاوزت الحادية عشرة صباحا، ونداءات باعة الخضر والترمس والفواكه تتناهي إلينا من النافذة المطلة على الشارع. أصوات الجارات تصلنا عبر مصاريع النافذة المغلقة، وهن يتحدثن ويعلقن ويتعاتبن، واقفات في الشرفات أو مطلات من النوافذ ... أصوات ذات نكهة خاصة استشعرتها وأنا في موقفي المحرج. كنت منفصلا عن المرأة الموجودة لصقي في الغرفة، ومشدودا إلى تلك الأصوات فيما يشبه الاستنجاد. وبعد قليل عندما ودّعتها، هرعت إلى الشارع أندس بين الناس والأصوات، وأبحث وحدي عن لذتي المتخيلة ...

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

هل تمنيت أن تكون أمي معي في لقاءاتي الأولى بالشهوة ؟ هذا الطقس الذي طالما ملأ الخيال وأجَّجَ الدم تحت الجلد، كيف أرتاده هكذا بدون احتراس ومراعاة لما يستحقه من مقتضيات دقيقة ؟ كأنني أهرب من حلم جميل ظل يفتنني.. وطال الانتظار فلم أعد أقوى على الاعداد لمراسيم الطقس، ونفذ صبري أمام دلال زميلات الجامعة الضنينات بجمالهن.

ها أنا أحول الطقس إلى حقيقة منفرة مدفوعا بقوى غامضة اجتذبتني نداءاتها القدرية إلى منطقة لها – رغم بشاعتها. أسرارها وروعتها.

خيالات وهواجس كثيرة لازمتني طوال النهار. وكان طيف لالّة ربيعة بعينيها اللوزيتين الضاحكتين، هو ما بدَّد وحشتي وأنساني صورة المرأة البشعة.

* * *

يشتعل الخيال أمدا طويلا قبل أن يلتقي الجسد بالشهوة، قبل أن يرتاد بابها الضيق. تختلط اللحظات والمشاعر، تتعدد الاجساد وتتناسل في الذاكرة ، لكن خيط الشهوة يسلكها في عقد كأنه الجمر يلسع المسام ويوقظها.

كيف يمكن أن نعيش بدون أن نختزن أجسادا في جسدنا ؟

قلت لها وأنا أتجه نحو الطاولة التي كانت تجلس إليها في المقهى الصيفي بالهواء الطلق، غير بعيد عن ساحة البريد المركزي بمدريد:

– لاأحد يستطيع أن يمنعني من الحديث إليك، ولو أنني لا أعرفك. عدا ابتسامتك ونداء عينيك، هناك رغبة قوية في داخلي تسلطني عليك.

– ولكنني أنتظر صديقا ... إلا أنني لا أمنعك من الجلوس.

في عتمة الغرفة، ونحن عاريان فوق سرير ضيق، كفَّ الضحك والابتسامات التي رافقت حديثنا من المقهى إلى ذلك البيت البعيد الذي

أعارتك إياه إحدى الراهبات التي تعرفت عليها بعد مجيئك من وراء البحار .... كنت تقهقهين وأنت تردّدين:

– ليغفر لنا الالاه والأخت الراهبة فضيلة تدشيننا للبيت على هذا النحو !

كف الضحك والابتسامات، ورأيت لأول مرة القلق اللامرئي الكامن في عينيك والذي أشعل، لديّ، المخيلة، والجسد. تلكأت نظراتي فوق منعرجات الِخصْر والنهدين، وعند العينين سربلهما حزن عميق، ونقط النمش توشي الوجه والصدر، وتلفهما في غلالة مثيرة.

تكلم الجسدان بنشوة واشتعال.

تكلم الجسدان حتي اقتنعنا أن كل حديث عدا ذلك، باطل. لا نريد نهاية للقائنا. خرجنا هائمين متشابكين. شوارع مدريد ملأى صاخبة. مياه النافورات ترش وجوهنا. نحكي عن كل شيء ونطفيء العطش المتجدد بكؤوس البيرة ولا نتعب. وفي الساعات الأولى من الصباح، يضمنا الفراش وكأن الشهوة بكرا ماتزال في جسدينا.

هل تذكر أيها الجسد العاقّ ؟

في غمرة النشوة، في اندفاعة الجسم والنفس نحو المترائي المنفلت باستمرار، يعاودك الوهم القديم الجديد: أن تمسك بما لاتستطيع أن تسميه أو تطاله .. أن تذوب في الجسد الآخر، في الكيان المستقل المثير بتفاصيله وفتنته وتمنعه...

تستلقي على ظهرك وتغيم عيناك في السقف المزركش بخطوط ضوء يتسرب عبر مصاريع باب البلكون الخشبية، ثم تهمس متحدثا إلى المستلقية بجانبك الغائصة فيما لا تدري من مشاعر واستيهامات:

«هل تحسين مثلي بظلال الحداد تغمر تدريجيا فرحة النشوة العارمة التي تراءت لنا عبر رحلة جسدينا ؟ أفكر الآن في امرأة عبرت معي من

صحراء اللاشهوة إلى رحاب الشبق والخلاعة الجميلة. عشر سنوات عاشتها مع زوجها وماذاقت هزة المجامعة. كان يضاجع نفسه تقول. كانت تحس جسده بعيدا عنها، والطهرية تقضي بأن تحترم طريقة الزوج في استحضار شهوته ... ونحن نهتز معا على مشارف الشبق المندلع من جسدينا، أحسست بها امرأة أخرى. جسدها المتواري قبل، خلف الخجل والحرمان،اكتسح آنئذ السرير والغرفة وانتشلني من اعتيادية قد تضفي السام على طقس اللذة. ومع ذلك ظللت أترقب شيئا آخر ...

«معك الآن يختلف الأمر: تلقائية جسدك تجعل الشبق ينسكب في عذوبة توقظ ذلك الوهم في دخيلتي. أعي جيدا أن هذا الفعل الطقس لايمكن أن يتكرر.. لايمكن أن يتكرر... هل تتابعين ما أقول ؟».

نفس القلق اللامرئي يطل من وراء ابتسامتك وأنت تديرين نحوي وجهك. تصعدين زفرة وتنتصبين. أتابع ما تتفوهين به: «ليس لي ما أقوله. لابد أن نغادر الغرفة. ثم إن المساء يقترب وهذه ليلتك الأخيرة بمدريد. ألا تريد أن تودع المدينة التي قلت أنها تسحرك ؟»

وأنا أنهض لارتداء ملابسي تذكرت أننا لن نلتقي بعد تلك الليلة. كانت اللحظات المحظوظة تستعيد طابعها السرابي.

أحسست منذ أول لقاء أنها تختلف عمَّن عرفت قبلها من الفتيات والنساء. لم أكن بحاجة إلى أن أراها تلك الليلة، بعد أسبوع من تعارفنا، ترقص بخطوات رشيقة لا تكاد تلامس الأرض، لأتأكد من أنها مختلفة عن الأخريات.

صيف 1968 والساعة الخامسة بعد الظهر،وهي إلى جانبك في السيارة تدخن صامتة وتنظر بعينيها العسليتين المناقضتين بهدوئهما الظاهري لغليانها وفورتها. تبتسم لها وتقول (بحثا عن أي كلام):

– هل تضايقك السرعة ؟

– أبدا. على العكس، أحب أن تسير بسرعة أكثر رغم أننا نتجول

بدون هدف ....

والحديث يبدأ من حيث أتت من باريس التي ما تزال تعيش امتدادات الربيع الساخن. ووجهها الأبيض واللثغة المحببة عندما تحدثك بالعربية، يذكرانك بالطفولة ومدينة البدء ...

تحدثنا في كل شيء كأننا نستأنف علاقة سابقة. كان التواطؤ بيننا ضد الآخرين وضد العالم ينسج خيوطا تشدنا بقوة إلى وهم ضرورة خلق كل شيء من جديد. ووجدت أنها هي، الجالسة إلى جانبي في السيارة، الراقدة معي فوق الفراش، المتجولة عارية داخل الشقة، المحاكية في رقصها لـ «إزادورا»، الحالمة بمجتمع لا تحتقر فيه المرأة... وجدتها تجسد نموذجا كنت أضعه دائما في منطقة الأحلام الممتنعة.

قلت لها يوماً:

— أحيانا أرتعب أمام جرأتك مع أنني أجدك في الفكر والسلوك، المخرج الوحيد من وطأة زنزانة يخيل إلي أنها تزداد إطباقا علي...»

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

ابتسمت ابتسامتها الساخرة قبل أن تجيب بهدوء يقنعني دائما أنها من عالم آخر رغم اقترابي منها:

— «عندما غادرت البيضاء لأدرس في باريس، لم تكن سني تتجاوز الثامنة عشرة. كانت مراهقتي جحيمالأنني فقدت أمي في فترة التحول ولم أطق زوجة أبي فالتجأت إلى العزلة والقراءة. وفي باريس ترائى لي أن بالامكان أن أجرب الحالات القصوى في الفكر والجسد والعلاقات. لعل هذا هو ما يخيفك: امرأة تهدم الليل بحثا عن نهار مستحيل ؟

بدأت أشعر أنني قاصر عن التحليق في سماواتها. وهي على رحلتها مصممة.

استمر الحوار عبر الرسائل زمنا ثم انقطع.

ابتلعتني الدوامة. انشددت إلى اليومي المعاد. وفي لحظات الملل

والكآبة يلتمع وجهها، يرقص جسدها الرشيق مجنحا ليمسك بأطياف بلورية. بدأت ألتجيء إلى ظلال ذكراها لأحتمي من وقدة الهجير... امرأة من عطاءات الطفولة المنغرزة بين الحنايا.

هل تذكر أيها القلب الفالت ؟

بعد خمس سنوات تراها جالسة في ركن أحد المقاهي بحي سان ميشيل، منطفئة النظرة، باهتة اللون، فاقدة لاناقتها المميزة... رأتك ولم تكد تحرك ساكنا. تنظر إليك وكأنها تراك لأول مرة مذهولا تقترب منها. تنحني لتقبلها على خدها وكأنك تقبل رخاما. صوتها واهن يرتجف والسجائر المتتالية تدبغ أصابعها بصفرة داكنة.

أحسست أن كل كلام لن يكون إلاّ زائدا. بل جلوسك إلى جانبها الآن نشاز، اعدام لانتصارات المرأة الحالمة المجنحة التي كانتها.

هل تذكر أيها القلب الفالت ؟

هي، لاغيرها، التي ملأت فجأة فضاءك المقفر. حملت إليك «كل شيء»: من سفر الثورة حتى لِذائذ الجسد القصوى. من فرويد وهيجل حتى حركة تحرير المرأة.

وتلك الليلة هل تنسى ؟

مسربلة في ثوبها الأسود وشعرها المضموم في شكل حدوة حصان، والعينان العسليتان الدافئتان.. وأنت وأصدقاؤك تحيطون بالشاعر الوافد من بلد شقيق. يتعثر الحديث قبل أن تبدد الكؤوس الخجل. وهي في تلقائيتها المعهودة تبدي رأيها وتمزج العربية بالفرنسية. لاتقبل أن يكون الحديث قاصرا على الرجال. لاتقبل أن تطغى المجاملة والتكرار. لها رأي في كل ما يطرح. وصديقك الشاعر غير معتاد على هذا النوع المقتحم من النساء. حضورها ينفخ في جمر السهرة فتتداعى الأسيجة والأقنعة.

ولماذا لا نرقص ؟ تقول.

امرأة واحدة ترقص معنا جميعا ؟

لا كل واحد يترك لجسده أن يتكلم.
في رشاقة تنتصبين. تنتقين أسطوانة وتشرعين في الرقص. نحاول أن نجاريك ولكنك تحلقين بعيدا. شيئا فشيئا تنفصلين عن الأرض فيبدأ الشاعر يصيح:

– رائع .. منتهى الروعة... جميل (ويُعَطّش الجيم محركا يديه المكتنزتين).

شعشعت الخمرة في مسامّنا، وفَتنَنا جسدك الهامس بحركاته المتسقة المتناسلة. ألاحق في يأس كل اهتزازات جسدك محاولاً اختزانها وأنا أردّد بيني وبين نفسي شعراً قديماً:

قلت وكم يهواك من عـاشق قالت: ومن يهواني فقد كفر

فجر تلك الليلة بعد أن ودّعنا أصدقاء السهرة، كنت في قمة الانفعال كنت أرتَجُّ وأنا أجوُس بشفتي عبر مناطق جسدك الشفاف. كنت أقول لك فيما يشبه الهذيان:

– حركات جسدك لاتنسى.

استمر الحديث بيننا. كان كلامك عن تعثر الانطلاقة،عن تبدد مطامح المنظمة ينقلني إلى منطقة الحقيقة التي كنت أستشعرها ولا أريد أن أفتح العينين لرؤيتها في واقعها لا كما كنا نوهم النفس. ووحدها كآبة ذلك الحديث هدت في داخلنا استنفار الحواس والمشاعر، فاستَسْلمنا للنوم.

ثلاثة أشهر وجسد كلّ منا لَصْقَ جسد الآخر. الجدال لايكاد ينقطع. كنت أقول لك إنك تُشْرعين أبواب الأمل والتحدي من خلال كلامك المتمرّد، لكنك أيضا تحملين في الأعماق كل يأس الدنيا والآخرة.

– من أراد أن ينتظر شيئا من الحياة لايملك إلا أن يعانق الأمل اليائس ...

هل ذلك ما لم أدركه إلا حين رأيتك بالمقهى غارقة في سهومك المسترسل ؟

كانت قدرتك على التركيز والوضوح تذهلني. كلما تاه بنا الحديث في مسالك المنظمة وإحباطاتها، تقولين بحسم:

«سيطول بك الانتظار، إذن... ولن يتغير شيء. أنا هنا في داخل الوطن أحس أنني لن أستطيع بعد أن أنسجم مع الناس. ما من لغة مشتركة بيني وبينهم. لا أستطيع أن أُؤَجِّل حياتي إلى مابعد. أهون علي أن أمتطي صهوة الجنون أو أن أرتاد السجن من أن أستمر هكذا أعيش بالتقسيط كما تفعلون ...»

كانت تلوح، عندئذ، حياتك في صورة قَدَر محتوم، منتهية: بين الجلد والعظم سكنت فيك لوثة المغامرة – الشهوة – التمرد – الرفض ... ولا تستطيعين أن تتنصلي منها. أنت من قبيلة الذين يشربون الكأس حتى الثمالة، يركبون الموج حتى الأعماق ويكتبون صفحات حياتهم من دواة الجرح.

أحسست بضآلتي وأنا منفيّ في عالمي المعتاد أتطلع إلى عينيك الساهمتين تحدقان في لاشيء وأنت تنفثين دخان السجائر ولا تجدين جدوى في الكلام. نفس الاحساس سحقني وأنا أزور ضريح «بويا عمر»، ملجأ الحمقى بالقرب من مراكش. كانوا مشدودين إلى دواخلهم تصدر عنهم صيحات أو بكاء. يطوفون حول ضريح السيد. يغرقون في سهومهم. وسط الباحة المفتوحة على السماء، وعلى جدرانها المطلية بالجير، تستند الشخوص – الأطياف. تسهو. تَتَمَلْمَل. فجأة يصيح صوت. تجري بنت إلى قبّة الضريح وتَهوي بيديها إلى الكساء وهي تندب وتتشفع. يعود الصمت. والرجل الأعمى الموثوقة يداه بسلسلة حديدية يقوم بين الحين والآخر بحركات رياضية.. حركات يروض بها عفاريت تحركه من الداخل، ثم يعود إلى ركنه وصمته.. يغرقون جميعهم في سهوم ثقيل.

لن أعرف قط ما الذي اختل في جهازك أنت التي كنت تبدين في عنفوان التماسك والصلابة والاصرار على تفجير كل شيء. ولأنك جزء من «طفولتي» فأنا لاأذكرك، الآن، إلاّ ضاحكة واثبة، راقصة. لاأذكر إلاّ هُيامك بالفرح: عناقيد ورد أو أكاليل دم، أو أعراس حلم. لكنه الفرح. الفرح، تقولين، يستغني عن كل عقل ...

أتذكرك وأحاول أن أقنع نفسي بأن صورتك في المقهى لم تكن سوى كابوس عابر اختلط بأحلام يقظتي، بعد الظهر، ذات خريف.

باريس 19 يونيو 1970

عزيزي الهادي

لم أخطرك بمغادرتي تجنبا لمناقشة غير مجدية، فأنا مقتنعة بعجزي عن العيش تحت وطأة توجس وانتظار وأمل كاذب تصنعه كلمات لاتعي طبيعة الكابوس، وشراسة سدنة المعبد. ثم إنني تعودت – بسبب استلابي، ستقول – أن أعيش حاضري كلية وفق مايشعرني بالامتلاء وتحقق الذات. لست أدري كيف عشت – من جانبك – علاقتنا. أما أنا، فقد عشتها من خلال التلقائية التي علمتني إياها تجاربي في باريس. تلقائية تستجيب للآني، لنشوة اللحظة، ولتوفر التواصل وجريان الكلام: ذلك مايبدد السأم ويضوىء النفس. متى اشتعلت الشرارة بيني وبين الآخر ضمن التواطؤ، والانجذاب، وإعادة ابتكار اللغة والأحلام، استجبت بدون إبطاء، تاركة للمحللين ومراقبي السلوكات أن يرصدوا هذه الظاهرة ويؤرخوا لها ....

أعود إلى باريس، إذن، وأنا مدركة أنها تغيرت عما كانت عليه سنة 1965 عندما وصلتها أول مرة، وواعية بما أحدثته إقامتي من تبدّلات لديّ، حدثتك عنها كثيرا خلال سهراتنا الممتدة في شقتك بالرباط. لقد كنت تستغرب كيف أن فتاة مثلي استطاعت أن تستجيب لاغراءِ تجريب كل شيء، والتطلع إلى الحالات القصوى في مغامرات العقل والجسد. قد تكون قراءاتي هي التي وجهتني أول الأمر. لكنني سرعان ماتبينت أنني مقبلة على

اكتشافات لن تتركني على ما كنت عليه من قبل. قالت لي باريس:

«كل تحول يبدأ من الجسد، ونحن لانعيش مرتين وإذا لم نندرج ضمن الحركة ولم نبتكر لغة تَسْنُدُ تغيرنا الحتمي، أغرقتنا المواضعات، ولفّنا الموت البطيء ....»

كلام بسيط، إلا أنني وجدته مجسدا من حولي في الخطابات والسلوكات. وبدأت المقارنة: ماعشته أو يمكن أن أعيشه في المغرب، وماهو متاح، هنا، في شكل تجربة – مغامرة، مفتوحة لاأعلم إلى أين ستنتهي بي.

لم أكن، أول الأمر، أعيش مغامرتي كامرأة مشروطة بنظرة الرجل، لانني كنت أعتبر نفسي في وضعية مماثلة لوضعية زملائي الطلاب المغاربة. كنا نعيش مرحلة التحولات والمخاضات المنذرة بالتحرر والثورة. وكنت مفتونة بالحالات القصوى، كما قلت لك. وَلَدّي شغف أن أجسد ما قرأته وعاينته .. وكلما استوعبتُ قسطا، طمحت إلى ما هو أبعد.

عشت بكلّ كياني فورة مايو 1968. كنت أحضر التجمعات في باحات السربون، وأناقش وأستشهد بسارتر، وماركوز، وفرويد... وأنتقل من علاقة لأخرى بحثا عن مطلق يتخايل لي في كل حين. من حولي، كان عشاقي يستغربون وينْفَضُّون عني، تخوفا من نهَمي وجرأتي على طرح الأسئلة. لم يكن اصطياد زوج هو مايشغل بالي. كنت مشدودة إلى محاولات التركيب بين ماركس وفرويد، وإلى أطروحات تحرير «الجنس الآخر». لعلك تذكر مناقشتنا لفيلم «حكاية أو» (Histoire d'o)، وطريقة فهمي لهذه الرواية المبتذلة فنيا (كما كنت ترى). إن قيمة الفيلم – في نظري – تمثل في طرحها لسؤال دقيق: كيف سيصبح موقف الرجل، من الحياة، عندما تجرؤ المرأة على محو نفسها، «حرمتها»، من خلال المنح المطلق لجسدها ؟ ماذا سيفعل، ذلك الرجل، عندما لن يعود هناك مخلوق يتآبى على رغباته ونزواته، وعندما تصبح المرأة أقوى لأنها استوعبت واستجابت لكل «طلباته» ؟ وكنت تجيبني ساخراً:

«لن يبقى أمامه سوى الانتحار بعد أن يكون قد «انتصر» على جميع من كان يجرب عليهن تفوقه !»

لعلك لا تستطيع أن تدرك تماما حالة من يعيش «حياته» من خلال سلطة قبلية تصادر أحلامه وأهواءه، وتحرمه من أن يكتشف، بجسده ومشاعره، أوهام الفعل الحر والانتشاء بالتجربة. وحين يكون الرجل المتشبث بامتيازاته هو من «يعطيني» متعة التجربة، فإن المرارة تطمس ما عداها. هل هذا هو ماجعلني، دوما، حذرة من الوقوع في شبكة العلائق المبتذلة: رجل يجرب سلطته على امرأة تقاوم تسلطه أو تستكين ... كان شيء أهم يملأ مخيلتي ويشدني إلى المغامرات الواعدة بالتجدد والاحتراق.

أكتب لك هذا الكلام وقد مرت سنتان على إشراقات مايوة 1968، وبدأت الأحلام المتوهجة تخفت، وسلطة المؤسسات تسترجع سيطرتها، وأفعال التغيير تتحول تدريجيا إلى خطابات تحليلية ... لكنني مدركة، الآن، أن اختياراتي لم تكن فقط تحت تأثير ثورة الشباب هنا. أشياء كانت مهيأة في أعماقي لاصير الفتاة (العانس ؟) المغامرة، الظمآنة، المتحدية للحدود والمواضعات. بل منذ وصلت إلى باريس،أول مرة، وأنا أجري وراء صورتي التي أعايشها الآن: امرأة لا تعترف بغير ما يستجيب للرغبة، تتكلم بصوت مرتفع لتفهم ذاتها وتنفذ إلى ذوات الآخرين، تناهض رموز التسلط والوصاية في مجتمعها (وفي كل المجتمعات)، تحلم بأن تُجسد نموذجاً آخر مغايرا لنموذج المرأة – الدمية. وكما قلت لك – عندما سألتني – فإن هذه الصورة – الحياة لاتعطيني سعادة متوهَّمَة. إنها ترسم لي أفقا، غير أنها «تعزلني» لكنني أتشبث بعواقب الاختيار، وأتحمل ما يتراءى لي، وراءه، من عذاب واختبارات قاسية.

لغيري أن «تراجع» النفس أو تميل لنصائح الأهل، فترتد إلى طريق الصواب وتنتج البنين والبنات. أما أنا فلا مناص لي من متابعة التجربة مهما يكن المآل. أتابع السير حتى وأنا أعلم أنني لن «أحقق» شيئا. ليس هذا

هو المنطق الذي أقيس به حياتي الآن. بل إن التدمير، الانتحار البطيء، الجنون ... احتمالات لاتخيفني. لقد بلغت نقطة اللارجوع. وعندما أبتعد قليلا عن تجربتي، وأطل من بعيد على مسار آخر «ممكن»، لا أقوى على تحمّل صورتي في إطاره: لا أحتمل فكرة أن أعود إلى تحليل أوضاع المرأة والرجل، ووسائل التحرير ... أتخيل زميلاتي أو فتيات أخريات ينسجن هذا السيناريو عن تحرير المرأة وقد انغمرن وسط دوامة التبرجز،محاولات نقده في الوقت نفسه، مثلما تفعلون (وأنا كنت معكم) للتبشير بمجتمع آخر. لم أعد أستطيع أن «أُمثل» دورا أظهرت لي التجربة عبثيته، أو بالأحرى، سخفه: أكون فيه أنا العارفة، المتمردة، الجريئة، الداعية لخلاص «أخواتها» المقهورات المظلومات الخ ...

لكنني وأنا أتحدث إليك هكذا بقلب مفتوح، لست متأكدة من أن إرادتي وحدها هي التي تملي علي ما أفعل. ربما صرت جزءا من «بنية» كما يحلو لك أن تفسر .. جزء من رؤية توافرت شروطها فلم أعد أستطيع الانفلات من قبضتها .. لايهم التفسير لأن «ذاتي» ممتلئة باللحظة – الحلم – الجنون، بما لا تليّنه الكلمات ولا السعادة المبتذلة.

ماذا أقول لك بعد ؟

لن أصف لك حركة «الحي اللاتيني» كما كنت تصر على تسميته، فهي الآن حركة مكرورة مع ضمور الحماس واسترجاع اليومي لقوته الامتصاصية. وأنا لاأقرأ كثيرا مثلما كنت من قبل. أعيش متنقلة بين الوجوه والأجساد وعلب الرقص. أرقص حتى الانهاك على طريقتي. أخلق لحظات «محظوظة» كل مساء وأغوص في تفكير بلا حدود (أغوص: ربما هذا هو اللفظ المناسب). وأنا أغوص، أحس باقترابي من رؤية تنتفي من أفقها مقاسات الربح والخسارة، هالات الطهر والعهارة.

لك تـحـيـاتي

ف / ب

استهلال نوبة العشاق

كون منغلق ومفتوح، أقول دائما كلما اجتزت «باب الجلود» أو «البطحاء» في طريقي إلى منزل الطفولة ومرابع الشيطنة وفسحات اللعب والسمر. أتمتم بأشياء كثيرة، مختلطة، مبهمة، غالبا بدون معنى، وأنا أرتاد سبلك ودروبك وأزقتك للمرة التي لاأدري موقعها في ترتيب الالف. أتمتم حتى أدفع عني الغربة وأؤكد الانتماء لأحجارك .. حتى أتحمل الدهشة المستولية علي أمام جدّة السحنات والكلمات والرطانات، أمام الألوان المتناسلة من بلورة موشورية تظلّل فضاءاتك: «قد سمع الله لمن حمده» تأتي من مسجد صغير مشرع الأبواب، «ثْعَالُوا على لَمْليح» يقولها بائع الفواكه، «ثلاثماية وخمسين ريال.. حَراج» ينادي الدّلال وسط زحمة الشرابليين، «أنا عبد الزين» يصيح خراز من داخل دكانه وهو ينظر إلى سِرْب من العيون المشعة، المتلألئة، وراء اللثام، «بَرَّدْ يا عطشان» يردّد بائع المشروبات غير بعيد من أحد أبواب مسجد القرويين ...

جلاليب بيضاء تحاذي جلاليب رمادية وبُنِّيَّة وسوداء، والطرابيش الحمراء تطيل هامات أصحابها، والعمامات البيضاء والصفراء تزين الرؤوس بجدائلها المتراكبة عبر تموّجات محبوسة. والبنات والنساء المرتديات تنُّورات وبنطلونات وأقمصة مفتوحة يُقدّمن نسخة أخرى للأجساد والوجوه المتوارية وراء جلاليب فاتحة اللّون في معظم الأحيان.

أنظر إليك كأنما أبصرك لأول مرة: أبصر الحياة داخل محارةٍ مفتوحة الصدفة. لايكفي أن أجوس عبر جزء من أحيائك وأسواقك.

تظل النظرة ناقصة. يظل الفضول متحفّزا قبل أن أستكمل التطواف وأملأ العينين والحواس بناسك وأشيائك ومعمارك : الطالعة الصغيرة، كرنيز، سيدي موسى، باب مولاي ادريس، الشماعين، القرويين، المركطان، القيسارية، العطارين، الرصيف... المسارب متداخلة كالمتاهة، غير أن لكل حومة وكل حي ألوانه ونكهته وقطعة فضاء تسمُه. وعندما أتمم الجولة وأستكمل النظرة أبدأ أستعيد ذاكرتي فيك: تنبثق صوري ورموزي داخل عالمك المتجدد وأشيائك المتحولة.

هل أنا ذلك الطفل الذي كان يظل الساعات الطوال، برفقة أولاد الحومة، ينبش رماد «العطارين» بعد أن ابتلعت النار دكاكينها وسِلَعَها وتوابلها، بحثا عن قطع نقدية معدنية صَمَدَت في وجه اللهيب ؟ «عَاوَدْ ثاني شعلت العافية فالعطارينْ» يقول الخال بصوته الجهْوَري ذي القرار المهول، فتتسرّب الفرحة إلى نفسي، لأن عملية التنقيب وسط الرماد ستحمل المفجآت وتجدد إيقاع اللعب، وتلَوّن المسرّات.

كيف كانوا يعيدون بناء دكاكين العطارين وترميمها بسرعة بعد كل حريق ؟ دائما أُفاجأ بأطلالها تقف على قدميها في وقت قصير، فتعود الحركة، ومعها الزحام واللغط، إلى ما كانت عليه كأن اللهيب لم يرقص بألسنته الثعبانية طوال الليل ملتهما سقف القش الممتد على فضاء العطارين ومن دكاكينها ؟ انظر الآن إلى هذه الفسحة الجميلة ترتادها من العطارين، حيث بضعة دكاكين تبيع أواني الفخار والطواجين والحناء والقطران، وحيث مسجد صغير يترقرق ماؤه بدون انقطاع في ظل شجرة فارعة امتدت فروعها وأغصانها القوية إلى مافوق الدكاكين والبنايات، غير بعيد من المارستان. انظر الآن، واسأل كيف عجزت النار عن أن تبيد الحياة في هذه الرقعة المنحشرة بين المنازل والمساجد والمتاجر، عشا بين الأعشاش.

تتحول الأشياء وتبقى الصورة ؟ تبقى الأصوات وما اختزنته الحواس ؟ أم أن الفضاء يبقى والزمان ينقضي ويَحول ليعبر عن حضوره في أشكال ومشاعر أخرى ؟

كأننا نستعيد الزمان – الفضاء دائما على حساب حاضر غير مطمئن .. كأن ما يحدث الآن قد حدث في منطقة تقع بين المعيش والمتوهم، بين المحسوس والمتخيل. كل شيء ممكن، والرحلة يمكن أن تبدأ من جديد بنفس الحماس والاندفاع، لولا ثقل التجربة وزنجار الزمان !

هل تكذب المدينة ؟ هل فاس تكذب ؟

كل صباح، كنا نسمع حوافر بغلته المحفوفة بصفائح حديدية، تصلصل عند ارتطامها بالأحجار الصغيرة المنغرسة في تربة الطريق المنحدرة من سيدي موسى إلى النجارين .. وأبادر إلى الباب لأتابع حركات «الحاج عبد الواحد» من فوق البغلة وهو يردّ على تحايا الناس في وقار ملحوظ.

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

انقرضت البغال المطهَّمة وبقيت الحمير !

هل تكذب فاس أم الذاكرة جلّلَها النسيان ؟

أكثر من عشرين يوما والمدينة القديمة محاصرة، تغلي بشيوخها ونسائها ورجالها وأطفالها. حركة لا تهدأ والمساجد تصدح جنباتها بتلاوة القرآن والأذكار وترديد اللطيف. تفجّر التحدي في وجه السلطات الفرنسية وأعوانها، واشتعل الحماس الوطني على الوجوه والجدران وعبر الحناجر، ولم ينفع التخويف بالتجويع وقطع المؤونة. يتظاهر الناس ويهتفون، والأزقة الضيقة مكتظة، والنساء يُزغردن من فوق السطوح وعبر الطَّاقات. الألسنة لا تتوقف عن نقل الأخبار، والآذان مشدودة إلى الاذاعات الخارجية، والمناشير تنقل التعاليم وتبتدع لغة الرفض. من الصباح إل المساء، و«فاس البالي» على قدم وساق: عشرات الشباب

يسهرون على توزيع الخبز والمواد الغذائية، ويواسون عائلات الذين اعتقلتهم سلطات الحماية.

تغير وجه فاس في عيون أطفالها: الكبار هم الذين يصيحون ويجرون ويتلامسون، ويقضون الساعات الطوال في الأحاديث والتعليقات مضربين عن العمل. يتوجسون عبر الأمل، ويجرفهم التوتر والاندفاع. ونحن الأطفال نحاول أن نستيعد داخل ذلك الجو المكفهر، المثير، مجالنا الحيوي من خلال ابتكار لعب أخرى ومحاكاة إشارات الكبار وأصواتهم.

هذه الأزقَّة نفسها التي تَمسَحُها الآن بنظرتك المتهجّية لملصقات مرشحي الانتخابات التشريعية ذات الشعارات الطنانة الواعدة، هي التي كانت تزلزل تحت هدير الأصوات المنادية بالاستقلال والحرية، المتلاحمة في حماس تلقائي يستمد نسغه من اقتناع غير مكتوب على الملصقات.

لاتحاول أن تقارن أو تُعلل، فالأشياء والعلاقات تشي بحمولاتها وتستغني عن التفسيرات .. وقد تكون، في اختلاطها وتمازجها، تمهد لفضاء آخر له شعريته وميثولوجيته. غير بعيد، يطالعك دُكَّان الخياط المكسوة جدرانه، منذ زمن طفولتك، بصور لاعبي كرة القدم وصور المتلاكمين .. صور نصلت ألوانها إلا أنها تسترعي الانتباه: اللؤلؤة السوداء، العربي بن مبارك كما كانت تسميه الصحافة الفرنسية في الأربعينات، وهو يوقف الكرة برجله استعدادا للمراوغة فيما رسمت يداه حركة تقاطع تُعينه على خداع اللاّعب الذي ينتصب أمامه. وعلى الجدار الأيسر، صورة مارسيل سيردان، بطل الملاكمة العالمي بوجهه المكتنز وصدره الكثيف الشعر، ويديه المتدثرتين وراء جلد قفاز الملاكمة السميك. احترق سيردان في الطائرة وظلت بطولته خرافة في أذهان المعجبين. وفي الأيام الأخيرة، عاد الناس إلى نبش ذكرياتهم عنه بمناسبة عرض فيلم سينمائي فرنسي يحكي غرام سيردان بالمغنية إديت بيّاف ..

والحاج العربي بن مبارك تذكروه في التلفزة أخيرا فقدموا عنه فيلما وثائقيا: كان يبكي وهو يتذكر زوجته الراحلة وابنه المعوّق.

وعند عتبة باب ضريح مقفل، تكوم قارىء القرآن الأعمى بطاقيته الصوفية وجلابيته المهترئة كأنه ذلك المقرىء القديم نفسه الذي كان صوته يحدث في نفسك انقباضا تحار في تفسيره.

«قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ...» يقرأ وعيناه المطفأتان، المكشوفتان، يصبّ بياضُهما في بياضِهما كلما مدّ النبرة ونفرت حباله الصوتية من خلل عروق عنقه ...

والعجوز بجلبابها ولثامها المنحدر إلى ماتحت الأنف، تستند إلى عكاز لتصعد عقبة «سويقة بن صافي» فتبدو مهددة في كل لحظة بأرتال الحمير والسابلة المتعجلة، لولا أن يدا تمتد إليها لتُسعفها على شق طريقها وسط الحشد المتدافع بالمناكب والأكتاف. والدكاكين غيرت من سلعها: سراويل جيزنس وقمصان أمريكية، معاطف وبدلات جاهزة، صدريات مزوقة بشعارات وأسماء أجنبية، أحذية الرياضة ونظارات الموضة البراقة .. والصبايا والصبيان يستفسرون عن الأثمنة ويتبادلون المعلومات عن أجود الأصناف والأشكال قبل أن يمتد الحديث، احتمالا، إلى المغازلة وضرب المواعيد !

وأنت، مأخوذا بما ترى، تظل مع ذلك مشدودا إلى العيون الوسيعة الواشية بابتسامة خلف اللِّثام. كأن هذه الأزقة والدروب لا تزهو وتتألق إلاّ بالجمال المحجب المنطوي على أسرار الهوى والفتون ... وأذناك تتسقّطان ما قد تَتَلَفَّظُه شفاه النساء في حديثهن، وخاصة الأصوات ذات اللثغة الموقظة لذكرياتك الغافية: «سيد المصطفى وأجرك على الله، يَزْضَمْ على الزبيبة وتطلع معه حلاوتها ..» لا تَتَوهّم، فالأصوات قد تتشابه ولكن التي تحاصرك صورتها منذ وصلت إلى حيّها، غير موجودة. رحلت، شاخت، ماتت ؟ سيَّان تقول مادمت أستطيع أن أستعيد عينيها اللوزيتين

الضاحكتين، وأستحضر بسمتها الآسرة وغمَّازتها المميّزة .. كيف أنسى قدها الأهيف وهي ترقص وسط النساء المفتونات أيضا بجمالها ؟ لالة ربيعة طيف من عوالم ألف ليلة كانت تقول لك ذاكرة الطفولة الممتلئة بما سمعته خلال أيام النزاهة مع خالك «سيد الطيب». ترقص لالة ربيعة فيتغير المكان والزمان. وتحس أنها ترقص لك وحدك، لأنك الطفل الوحيد الشاهد على فتنتها الأنثوية. تقبلك وتداعبك فتوقظ فيك الشهوة المبهمة وتقود خطواتك الأولى على طريق تقديس حضور المرأة. محفوفة كانت بالأسرار والغموض: كنت تغار عندما ترى نساء الحفل يحطن بها في وشوشة تقطعها الضحكات والخبطات على الأفخاذ مع عبارة تضاعف غموض الحديث لديك: «يَعْطيك هَدَّة يا العفريتة».

تنزل وتصعد، والأزقة المستوية السطح قليلة، مما يجعل نظرتك إلى الناس والأشياء دوما من فوق أو من تحت. لا تتعب قدماك من التجوال عبر مسالكها ومساربها، وتخال نفسك، الآن، في مدينة الأحلام: موادُّ التغذية تجاور الملابس، وبائع الحليب غير بعيد عن بائع الفواكه، والمكتبة محاذية للخياط، وأغاني المذياع ونشرات الأخبار وتراتيل القرآن تختلط بالكلام والصياح والضحكات... بل حتى الكلام الأجنبي يَندَسُّ وسط جوقة هذا الكرنفال اليومي من خلال أفواج السواح والسائحات. تنزل وتصعد محاولا أن تتذكر متى بدأت تتساءل عن تلك النكهة التي فقدتها منذ رحيلك إلى المدينة الشاطئية ... نكهة لها رائحة مع أنها متصلة بمناخ بشري: رؤية البنات والنساء البيضاوات الفتخاوات بِبَشرتهنَّ الحلبيّة الناعمة، وعيونهن الناعسات، وإشاراتهن الرقيقة ... أبداً يُعطينَكَ الاحساس بأنك لو اتكأت عليهن «لانْهدَمن» تلك الرؤية التي فُطم عليها خيالك الطفولي، لها الآن في ذاكرتك نكهة الحبق المطلّ بخضرته المضيئة فوق أواني الفخار المبثوتة في الدار الكبيرة. لها الآن رائحة الياسمين المتضوعة، ليلا، في رياض ابن الخالة بحيّ «الدُّوح» أثناء ما كنتم تسهرون

برفقة بنات مُترفات الجمال ... ولو استرسلت لقلت إن لها نكهة طبق «لمروزية» عندما يسخن بعد مرور شهر على إعداده في عيد الأضحى، فتنتشي النفوس بروائح التوابل الزكية: القرنفل، قاع قلة، الزعفران ...

تصعد وتنزل والأزقة ماضية في التواءاتها، في لعبة الانحدار والصعود، الانفراج والتلاصق، أبواب البيوت تغري بتخمين ما تنطوي عليه من معمار وزليج وبشر. هل تستطيع بعد، أن تميز – عبر روائح الطناجر والقدور – أصناف المأكولات وأساليبها، الطبخية ؟ كأنك تقترب من الدار الكبيرة وتتناهى إليك رائحة طَبَقِك المفضل «اللحم بالكرنينا»، والرجل الفارع قاعد في صدر الغرفة بقميصه الأبيض ينتظرك وتحني رأسك لترتاد عتبة السطوان الأول، ثم تخطو وتجتاز عتبة السطوان الثاني، ثم تتخطى عتبة الباب الصغيرة لتطالعك الباحة والخصة الملجمة، وترفع بصرك فيرتدّ عند الدفتين المتعانقتين والصمت المطبق. بعد قليل يأتيك صوت «رقية» من الصقلية وهي تتساءل: «شكون ؟» وتردّ أنت: «غِير أنا أمّي رقية» فتتعرف عليك وتبادر بالنزول حاملة فوق ذراعها طفلا في الثانية من عمره، أبيض، مدور الوجه، بدون سروال، وتغمرك بالقبلات وهي تردّد: «الريحة العزيزة». تجلس على عتبة البرطال وهي تُصِرُّ على أن تعد لك الشاي وأنت تمسكها من يدها وتداعب الطفل، ابن ولدها، وهو فَرْحَان بهذا الزائر الغريب فيجري ويدور، وحَمَامتُه تهتز داخل حِجْره في تلقائية وإيقاع ...

أنظر إليك من فوق التَّل، من فوق سطح فندق المرينيين، من حيث تَبْدين بعيدة وقريبة: خلايا نحل بدون طنين، وفي دخيلتي ترنّ الكلمات وتتحاور، لتنسج صفحاتك التي تَرتَجّ بقراءتها الأعماق. أقول إن مصنع الأحلام توقف ونضب خياله بعد أن أبدع صورتك، وعلائق الناس في فضائك ودروبك المتشابكة. توقف الحلم بعدك. لكنني أحس فيما يشبه

الومض، أن بالامكان أن أرْتَجِلَ فيك، عبرك، الحلم. كل الشخوص انبثقت من أحشائك وعاشت تحت سمائك، غير أن حيواتٍ غير مسبوقة يمكن أن تُبتَدَع بعد، داخل أزقتك وبيوتاتك وأسواقك ومساجدك. كل الزمان انحسب عبر سَرْمدك الآني، فلم يعد هناك مجال للمفاجأة والدهشة، ومع ذلك فجميع الذين يرتادونك يَحْدُوهُم أملُ إطالة الزمن – الوهم، بين حناياك.

الشخوص جميعها جاهزة لتبدأ وتعيد لعبة الكذب / الحقيقة، لعبة النسيان من أجل الوقوع في الخطأ، وإعادة ابتكار لعبة الحياة.

إضـــــاءة

عند مدخل الفيللاّ بطريق إيموزار، وتحت أسلاك مرصعة باللَّمبات، يقف سي ابراهيم وإلى جانبه ابنه العريس عزيز، وخاله الطايع، مرتدين جلاليبهم البيضاء وبَلغَاتهم الصفراء «المدفونة» لاستقبال المدعوين إلى حفل العرس. إحدى الأمسيات الربيعية بفاس، بعد أن رحل الجفاف ومنّ الله هذه السنة على عباده بمياه الرحمة والخير. أنغام الموسيقى الأندلسية يعزفها جوق الحاج عبد الكريم الرايس مصحوبة بإنشاد جماعي ومواويل فردية.الوافدون رجال في أغلبهم، ومن حين لآخر يصل بعض المدعوين أزواجا أزواجا، نساؤهم مرتديات القفطان والمنصورية بدون جلاَّبة، فيسلم عليهم سي ابراهيم في حرج لأنه لم يقبل أول الأمر أن يكون الحفل مختلطا لولا إلحاح من ابنه عزيز الذي يحرص على مسايرة رغبة زوجته العصرية. وشارك الطايع في إقناع سي ابراهيم مستشهدا بقول ماثور عن الامام علي يحث فيه الآباء على تعليم أبنائهم ما يناسب زمنهم ... اقتنع سي ابراهيم وهو يردّد: «اللّي جابتو الوقت ماعندنا هروب عليه.حنا نبغيو لهم غير السعادة والرفاء والبنين». وكانت العائلتان قد اتفقتا على إقامة العرس بفاس، حتى تتمكن أغلبية الأقارب والأحباب من حضور الحفل، وأيضا تيمُّنا بمولاي ادريس وبركاته.

www.lilas.com/vb3
MALLOULI

يبدو عزيز مسرورا رغم توتُّر خفيف تشي به حركاته وضحكاته المقَوْلَبَة في إيقاع متقطّع. أرهقَته الاستعدادات، ويتعبه، الآن، أكثر التفكير فيما سيحمله هذا الزواج من تغيير إلى حياته. فمنذ تخرج من كلية الحقوق، مجازا من شعبة الاقتصاد، وهو يعمل بدأب وتفان في مكتب التسويق والتصدير، حريصا على إرضاء رؤسائه وعلى تسلق سلم الترقيات.

كان سي ابراهيم، من قبل، يلح على ابنه أن يتزوج «ما حدّ العود طْرِي»، سارداً عليه مزايا الزواج المبكر، مبديا استعداده لتحمل تكاليفه المادية. لكن عزيز كان يتشبث بضرورة البدء بـ «بناء مستقبله» والاعتماد على نفسه. آثر أن يستعيض عن الحب ببعض المغامرات العابرة المدروسة العواقب سلفا، فاستطاع أن يُبَرمج لَهوه في حدود اللاّئق المقبول، مستعينا بأداء الصلوات في أوقاتها، وبمزاجه المعتدل وطبعه الحذر المتوجّس خيفة من كل شيء. حتى عندما كان طالباً، في بداية السبعينات، وحركة الاحتجاج الطلابية في أوجها، عرف كيف يتحصّن داخل سوء ظنه وحذره، مردّدا أمام زملائه المندفعين: «لابد أن نعرف وجهات النظر جميعها قبل أن نختار ...» وكان الطايع والهادي يمازحان أختهما لالة نجية قائلين لها: «هاذ الولد مناين جبتيه ؟ ما اطلع يشبه لحبايْبُو حتى فحاجة ...». ولم يكن عزيز نموذجا فريدا على كل حال، فكثير من أصدقائه كانوا مثله «داخلينْ سوق رَاسْهم»، يواظبون على الدراسة ويستفيدون من وقتهم للنجاح في الامتحانات، قبل الالتحاق بِسِلك الوظائف والشركات لمتابعة نفس السباق المامون العواقب. كل ذلك كان يتم في سياق بناء «أجهزة الدولة». وبالرغم من مواقف الاحتجاج والرفض، وارتفاع أصوات المعترضين، فإن منطق الواقعية والتسابق إلى الانتهاز فرض نفسه، وشيئا فشيئا خَفَت بريق الشعارات الوطنية، وخلفه شعار: «لا تشييد بدون دولة قوية». البناء يتشيّد، والذين يسهرون على سيره لا يتورعون عن استعمال العنف، ولا شيء أفضل من أن تفوز – أيها الطامح – بموقع جيد وإن لم يكن القرار من نصيبك.

www.liilas.com/yb3
MALLOULI

العجلة تدور، عليك أن تحتل مكانك وتنتظر. انتظر لأن شعار المرحلة المقبلة، كما قال أحد الظرفاء، هو: «الدولة تمضي ويبقى الموظفون والتقنوقراطيون» !

وبالامكان أن نرصد تفاصيل هذه العملية من خلال سلوك عزيز وعلائقه، ولكن ذلك سيبدو مكرورا لكثرة ما نصادفه الآن من عينات مماثلة تجسد النموذج الناجح للذين خمنوا اتجاهات رياح الولاء قبل أن تهب العاصفة.

ومادمنا قد بدأنا بالزواج، فَلْنُشر إلى خلفيته لأنها قد تكشف ما لم نتحدث عنه. منذ ستة أشهر، تقريبا، تعرف الأستاذ عزيز على الآنسة سعيدة، عروسه وعروس الليلة، أثناء حفلة عشاء أقامها أحد زملائه الموسرين، وحضرتها فئة من «زبدة» المجتمع البيضاوي الجديد. أكثر من أربعين مدعواً، وقد صُفَّت الطاولات في الحديقة، والأكل على طريقة «اخدم نفسك بنفسك»، والرجال والسيدات والشبان والآنسات يتحدثون الفرنسية المخلوطة بالدارجة، والجدية المطلوبة تتخللها ابتسامات وتعليقات مرحة. معظم الحاضرين تلك الليلة ممَّن درسوا بباريس أو مونبولييه، بالاضافة إلى أطر متخرجة من الجامعة والمعاهد المغربية. الحديث يدور في وقار مصطنع، ومناخ هذا العشاء يزكي الاعتقاد بأهمية «العلاقات» والحرص على ترك انطباع جيد لدى الآخر ... والآنسة سعيدة عادت من مونبولييه منذ ست سنوات، متخرجة في الصيدلية، فاستطاعت بمساعدة والدها مدير أحد الأبناك التجارية، أن تفتح صيدلية نافقة، غير أنها لم تعثر على ابن الحلال الملائم، وسنها يناهز الثلاثين، فضلا عن جمالها المتوسط.

عزيز وسعيدة، في حديثهما يحلقان ويحومان أول الأمر، لكن كل واحد منهما يريد الاقتراب من لبّ الموضوع:

– هكذا هي الأمور عندنا .. الشبان يبحثون عن اللهو أكثر مما يفكرون في الاستقرار.

www.liilas.com/yb3
MALLOULI

– لعلك تبالغين يا آنسة سعيدة، فليس الشبان كلهم كما تقولين ...

– ربما. لكنني أتحدث عن الذين قابلتهم، وعما أشاهده من علاقات بين صديقاتي وعشاقهن ... أنا أعرف أن البنات أيضا يتهافتن على اللهو والمتعة، لكن الرجال أكثر ...

الرجال أم النساء أكثر ميلاً لِلَّهو، وأنت من أي صنف، ولماذا لم تتزوج حتى الآن، وكيف تتصور الحياة الزوجية، ومارأيك في التقاليد، وهل تحب أن يكون لك أطفال ... وعزيز يجيب باتّزان، ثم يسأل بدوره الآنسة سعيدة عن صورة الحياة التي تتطلع إليها، وعن وعن ... ونوع من التقارب ينتسج بينهما كلما امتدت السهرة وطال الحديث، من حين لآخر، يفاجئهما الداعي إلى العشاء، وهو من أقارب الآنسة سعيدة، بجملة لا تخلو من التباس وتشجيع:

– آش هاذ الشيء الاستاذ عزيز ؟ بنت خالتي خليتها بلا عشا.

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

والبقية معروفة مادمنا نشاهد الليلة حفلة العرس. وعلينا ألا نعير اهتماما للتعليقات الصادرة عن بعض أصدقاء العروسين، سواء ما تلعق بسنّ العروس أو بطمع العريس، فكل واحد منهما قد «جاب الآخر في الشبكة»؛ وهما بعد كل شيء، زوج متناسق: صاحبة صيدلية تقف إلى جانب إطار اقتصادي طموح، ويتجهان إلى هدف مشترك، هو الاستقرار والانجاب.فَلْنَتركْهُما يواجهان مستقبلهما الذي لا يعلم ملامحه إلا الخالق الباري جلّ وعلا، ولْنَعُد، أيها القارىء، إلى حفلة العرس وما يجري فيها.

بعد التقبيل والتبويس، يرافق عزيز المدعوين إلى داخل الدار حيث يقف شبان العائلة لالتقاط إشارات العريس التي تحدد الغرفة التي سيقاد إليها المدعوّ: غرفة لكبار الموظفين والشخصيات البارزة، وأخرى للكهول أصدقاء العائلتين، وثالثة للأزواج المرفوقين بزوجاتهم، ورابعة للشباب المراهقين. ويتم التوزيع خلسة من غير أن يشعر المدعو بعملية التصنيف. في باحة الفيللا تتولى جماعة من «الحجامة» تحضير الأتاي وتوزيع الحلويات،

لكن ثلاثة من أصدقاء عزيز يتولّون تمرير الويسكي عبر زجاجات الكوكاكولا بدون إثارة انتباه من قد يعترضون. من تحتها لتحتها تسير الأمور، وكل واحد إن شاء الله بالغ نشوته، والجوق الأندلسي يتأجج الآن أكثر ومن حوله المدعوون يرددون معه بصوت مسموع ويهتفون إعجابا وانتشاء. الكل ينشد مع الجوق والكل يتكلم في نفس الوقت مع من هو إلى جانبه أو جالس أمامه في الغرفة، واللغط لا يفتر، وتبادل التحايا والقبل، والعريس يبدو ثم يختفي، والضحكات والزغاريد ...

في الغرفة التي استقبلت الشخصيات البارزة والأطر الصاعدة، يدور الحديث حول بعض الذكريات وحول الطقس وأسعار البترول .. يتكلم الكبار وينصت الشباب في انتباه واحترام، والابتسامة لا تفارق شفاههم. تجرّأ موظف شاب وسأل نائب مدير مكتب الحبوب:

– أظن أننا، هذه السنة، سنستورد قمحاً أقل مما كنا نستورد ؟

– الأمر يتوقف على الجهود التي سيبذلها الفلاحون للاستفادة من الأمطار .. ولكن في جميع الأحوال التوجيهات صدرت للسهر على مضاعفة إنتاجنا من القمح حتى نستغني عن الاستيراد ونوفر العملة الأجنبية.

– شيء عظيم، لأن اقتصادنا محتاج إلى أن يتحرر من هذه الأعباء.

وردّ نائب المدير في نغمة تنهي الحديث حول هذا الموضوع:

– الخير أمام، وعلينا أن نتعاون جميعاً لخدمة البلاد.

وتساءل البعض عن مدى صحة شائعات تغيير الحكومة، فرد ملحق بديوان أحد الوزراء أن ما يقال هو مجرد اختلاق صادر عمن لا شغل لهم، لأن المواطنين راضون عن نتائج سياسة الحكومة الرشيدة المنبثقة عن انتخابات نزيهة بالرغم مما تدعيه صحف المعارضة من تزوير. إن ما نحتاجه،يقول، ليس هو كثرة التعديلات الوزارية، بل أن نتعلم السكوت حتى لا نشوش على الوزراء المنهكمين في العمل ليل نهار. بعض الابتسامات المتشككة تطوف على الوجوه، وبعض الموظفين يهزون رؤوسهم تأييدا لما

قيل، والحديث أشبه ما يكون بنغمة زائفة لأن لاأحد يتكلم حقيقة بما يعتقد.

في الغرفة الثانية، يأخذ الحديث مجرى تلقائيا بين الكهول وشيوخ العائلتين. تستغرق الأحوال الصحية قسطا كبيرا من كلامهم، وتستأثر هموم الدنيا بما تبقى. الغلاء نار حامية، والدرهم طارت بركته، ولا أحد يعرف إلى أين سنصل ويردد أحد الشيوخ وهو يُمسِّد لحيته البيضاء المسترسلة: «الله يخيرْ ويختار. هنا جا الحديث النبوي: وقيل في كل ساعة ترذل». ثم يستجيبون لنغمات الأندلسي فيرددون الأشعار وهم يضبطون الايقاع بتحريك الأيدي فوق ركبهم، فلا يلبث أن يَلُفَّهم الفرح ويأخذهم الطرب بعيدا عن المنغصات التي تطارحوها قبل قليل ...

إلا أن غرفة الرجال والنساء المختلطين تبدو أكثر تألقا ونشاطا وامتلاء. كأنها غرفة حشدت فيها المرايا طولا وعرضا، والحركات الانثوية عبر الملابس السابغة والحلي والمجهورات تخط لغة تقرأها الأبصار منتشية، فلا تفتأ العيون والبسمات والاشارات أن تتعانق، وشيئا فشيئا تتسلّل الألفة، وتتحرك الألسنة مفضية بما تختزنه الصدور. سألت امرأة تقترب من الخمسين امرأة شابة تجلس بالقرب من زوجها المحامي:

– هاذ التَّكشِيطة دايزها الكلام، وَاتَاتك تبارك الله. شنو سْميْت الثوب اللي فصلت منّو قفطانك ؟

– هاذا تيسميوه «أنت عمري» جابولي راجلي من دمشق.

– بالصحة والعافية .. هذا ثوب الموضة الجديدة عمري ما شفت بحالو. كل شهر تيخلقو لنا موضة مابقات استطاعة باش نشريو الثوابات اللّي تَتْهبّل. اليوم القفطان تَيخَصّو بالقلة القليلة اربعين ألف ريال ...

– أنا هذا طاح عليا بمليون فرنك .. ثوبه حرير والخياطة غالية ...

– هاك أمالي مليون فرنك ؟ تبارك الله رجلك شنو تيخدم ؟

– محامي مشهور في الدار البيضاء.

– ربي يزيدو من خيرو ... الايام كيف تتغير .. أنا مناين تزوجت، هدا لي رجلي قفطان ديال «الدينا جاتْ» بعشر ألاف ريال فذاك الوقت، بْقيت نلبس فيه، ونرد كثر من عشرين عام ...

زوجة المحامي المشهور تتكلم باعتداد واعتزاز وبصوت مرتفع حتى تسمع النساء الأخريات المتطلعات إلى قفطان «أنت عمري» الجديد على ساحة أسماء القفاطين المعروفة «يوم سعيد»، «ممنوع الحب»، «عمر الخيام»، «لا تكذبي»، «أمل حياتي» (لكن ثوب «أمل حياتي» لم ينجح كما توقع له مخترعو الأسماء في القيسارية، لأن عامة الشعب أصبحت تكني عن داء الجرب بـ «أمل حياتي»). كانت زوجة المحامي تتكلم وزوجها مستغرق في حديث الصفقات مع زبائن محتملين .. وما لم تقله للجالسة بجوارها هو لماذا يغدق عليها زوجها الثيابا الفاخرة كلما سافر إلى الشرق أو أوربا لمتابعة قضية من قضايا زبنائه المستفيدين من قانون الاستثمارات المغربي. توقفت عن الدراسة بعد أن كررت السنة الأولى بكلية الحقوق عدة مرّات (زميلاتها كن يقلن عنها بأنها تريد التخصص في برنامج السنة الاولى !)، وأتاح لها مستوى عائلتها أن تتألق بجمالها وغناها داخل الوسط الفاسي بالدار البيضاء، معلنة عن نفسها في الأفراح والمناسبات طرفا ملائما للزواج «المرتَّب». الآن، تولي كل اهتمامها لاعداد العشاءات والسهرات الناجحة في الفيللا التي تحمل اسمها بحي «أنْفا» الشهير، وتتفنن في ابتكار الأطباق الشهية، وتتتبع ما يجدّ في هذا المجال. نصحتها صديقة بأن تلعب التنس وتمارس التزحلق على الجليد بميشليفن في الشتاء حفاظا على قوامها، فلم تجد اعتراضا من المحامي المشهور. وفي المقابل تحرص على تلبية رغائبه واستيهاماته: في الليل، وبعد أن ينام الأطفال، يجب أن ترتدي له قفطانا ومنصورية وتتزين بالحلي والمجهورات، وآلة التسجيل تصدح بإحدى النوبات الأندلسية، والشامبانيا تعرق وسط مكعبات الثلج، وهو بقميصه الأبيض الفضفاض يقترب منها في حركات متذللة، متغزلة، تكشف تلذُّذَه وشبقه بصوت

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

مسموع وهذيان محموم يضفي على الزوجة – الدمية صفات من نار ونور. يقترب منها ليقَشِّرها كما يحلو له أن يردد. يبدأ بأن ينزع عنها المنصورية والقفطان فالقميص الحريري (في مثل هذه المناسبة، غالباً لا ترتدي حاملا للنهود ولا سروالا ..) ثم يمرغ وجهه في كومة الثياب الجميلة ويشم رائحة جسدها العاري المنعشة، ويصب من القنينة كأسا لها وآخر له وهو يشدو مع الجوق، ثم يخلع قميصه ويشرع في التقبيل واللّحس إلى أن يهده التعب فيغفو على صدرها ... عادة استغربت لها أول الأمر، ثم أَلِفتها واستكانت إليها وأصبحت طقسهما السري الذي يجعلها متواطئة معه. خلال تلك اللحظات، تحس أنها تسترجعه من دوّامة مشاغله وأسفاره، ومن دوّامة السهرات والحفلات وولائم المجاملة ... ولم يكن محامينا الشهير يمل من تكرار هذا الطقس كلما أُتيحت الفرصة، لأنه مُقترن في ذهنه باستحضار صورة ترسبت لديه عن المتعة و «الزّهُو» في الأندلس الفيحاء، وطالما تحدث إلى أصدقائه عنها. فكأن هذا النزوح عبر الاستيهام يخفف عنه ضغط إيقاع حياته السريع وهو يركض وراء القضايا والصفقات. ومن يدري ؟ فقد يكون نفس الاستيهام هو ما يحمل بعض الرجال والنساء، في هذه الغرفة، على ارتداء ملابس الأجداد السابغة المترفة، تطلعا لتحقيق توازن متوهّم بين ماض موروث وحاضر يشع بالبريق.

قبالة المحامي وزوجته، جلس شاب نحيل بارز الوجنتين، شعره مرسل، يرتدي بدلة أوربية بنية اللون، وإلى جانبه زوجته أو صديقته السمراء، بفستان بنفسجي منقط، مُقوَّر عند استدارة النهدين، فلا تلبث عين الناظر أن تنجذب إلى نقطة التقاء المكشوف والمكسوّ. كانا يضعان اليد في اليد وينقلان بصرهما بين بقية الأزواج مستمعين إلى خليط الأصوات والأقوال. تتبّعا الحوار حول قفطان «أنت عمري» في تلذُّذ وتَسَلّ. بعد قليل، همس الشاب في أذن الجالسة لَصْقَه:

– امرأة المحامي غَلاّت علينا السوق !

– انت عمري من غير ما تشري لي القفطان.

رغم نَبْرة الصدق في صوتها، جاء حوارهما شبيها بلقطة سينمائية في أحد الأفلام المصرية.

وتبدو الغرفة الرابعة، حيث تجمع أولاد العائلة وبناتها وأصدقاؤهم، عالما مستقلا عن الغرف الأخرى. كل مجموعة في ركن، وكل ركن له حديث، والسجال حامي الوطيس. دخان السجائر يكاد يحجب الملامح، وحديث الجد مختلط بالمناوشات والمغازلات يتبادلها الصبيان والصبايا.

أكبر حلقة التأمت حول فتاح ابن الطايع، وبجانبه ادريس أخ العريس الأصغر، وعبد السلام ابن عمه، ونادية أخت العريس، طالبة في باريس تتخصص في الترجمة الفورية ... والآخرون طلاب في الآداب والحقوق والهندسة والطب. كان منطلق الحديث هو الموضة الجامعية الجديدة: بضعة آلاف من المتخرجين العاطلين كل سنة، تهديهم الكليات إل الآباء والأمهات جزاء ما تحملوه من تضحيات! ومن ثم يبدأ التساؤل عن المستقبل والشكوى من هذا المجتمع الذي يوصد الأبواب في وجوههم. لكن فتاح يحاول أن ينقل الحديث إلى مجال أوسع ليذكر الملتفين حوله بأن المسألة أعمق من ذلك وأن على الطلاب والشباب أن يفكروا أساساً في مصير الجماهير المبعدة عن القرار بواسطة لعبة مزيفة توهم بوجود مؤسسات تشريعية هي في الحقيقة مفرغة من جوهر كل سيرورة ديمقراطية: تغيير القوانين والهياكل لصالح الأغلبية. كيف تكون هناك ديمقراطية إذا ظلت دار لقمان على حالها ؟ ورد عليه عبد السلام بأن هذا كلام متهور، متطرف، لايأخذ في الاعتبار الأزمة الاقتصادية العالمية وفشل تجارب العالم الثالث في الديمقراطية، فضلا عن أن تقاليدنا وخصوصيتنا تستلزم التدرج والتبصر ... وعلى كل، فإن حالنا أفضل ولله الحمد من أحوال أشقائنا في البلدان العربية الأخرى .. وتتدخل نادية لتقول بأن فرنسا نفسها تعاني من بطالة المتخرجين وأن على شبابنا أن يخترعوا «أشغالاً صغيرة» يثبتون بها ذكاءهم

ومرونتهم. فسأل ادريس عن العمل الذي ستخترعه بعد التخرج. أجابت بأن أباها حصل لها على تعاقد مع مؤسسة تجارية متعددة الجنسية، ومع ذلك فهي تستطيع أن تقترح مشروعا لتكوين مئات الطلاب والطالبات في مجال الطبخ المغربي وإرسالهم إلى أوربا وأمريكا ليعملوا مع العائلات الكبيرة على غرار ما يفعل رجال ونساء الفلبين وماليزيا ... قاطعها ادريس: اسمعي أنا لدي مشروع أفضل من ذلك. عندما سأحرز على إجازة الاقتصاد في السنة القادمة، أنوي أن أنشىء مكتبا لتصدير الهندية، والزريعة المقلية، والخروب، وبُوخَنُّو .. فهل تقبلين أن تعملي معنا مترجمة للمراسلات والفاتورات ومزايا المواد المصدرة ؟

صوت آخر يرتفع ليذكر بأن من واجب طلبة الجامعة أن يبحثوا عن أصل الداء ليواجهوه بجذرية ودراية ... وفي رأيه أن ما جعل الأوضاع تؤول إلى ما هي عليه، هو التفريط في مقوماتنا الروحية وتعاليمنا المقدسة، حتى لم نعد نعرف ماإذا كنا نعيش بمجتمع إسلامي أو بإحدى ملحقات الميتربول .. يكفي أن تشاهدوا ما يقدمه التلفزيون في طبعاته وأشكاله المختلفة، ويكفي أن تلقوا نظرة على المقاهي والمراقص والسهرات الخصوصية حيث يختلط الحابل بالنابل وتتحول الأمة إلى شعوب وقبائل. والذين ما يزالون متشبثين بالتعاليم الصحيحة والسنة المحمدية يجدون أنفسهم غرباء وسط الحشود المتهافتة على الربح والزنا، لا تتورع عن الغش والكذب والربا. أنا أسألكم ببساطة هل هذه هي المحجة البيضاء ؟ هل تعثرون في حياتكم العملية على شيء من العدالة وعفة النفس والتكافل والتسامح وجميع الفضائل التي جسدها محمد بن عبد الله وأوصى بها سلالات المؤمنين ؟ ألستم أشبه بالكلاب الضالة تتجه صوب اليمين وصوب الشمال متتبعة صدى أصوات صادرة عن طبول جوفاء لا تجدون عندها نبتا ولا ماء ولا شجراً يقيكم حر الهجير ؟

تحفّز فتاح للرد وعيناه تشعان بالتماعة المقبل على المبارزة، لان ما سمعه

نقل الحديث إلى المستوى الذي كان يريده. وبادر إلى الاشادة بما قاله المتحدث وأنه يشاطره، إجمالا، انتقاداته للأحوال التي وصل إليها المجتمع وتشخيصه لأوضاع الشباب ، ولكن الخلاف يكمن في طريقة التحليل وفي الايحاءات الضمنية لمواجهة المستقبل. فهو لا يتفق معه على أن التدهور ناتج عن إهمال الدين وتعاليمه بل مصدره عدم وعي التحولات الحضارية والثقافية في أبعادها العامة وتوجيه تلك التحولات وفق منطق التاريخ بما في ذلك الدين وعلائق الحاكمين بالمحكومين. فنحن لا نستطيع أن نحتمي من التحولات التي هي جوهر الحياة، بالعودة إلى نموذج تحقق في عصرنا الذهبي. ولذلك، أضاف فتاح، أعتقد أن نقطة المنطلق هي جعل الموروث الحضاري والثقافي والديني في علاقة حوار وتفاعل مع أسئلة الحاضر ومع المعضلات التي تولدها التحولات وتناقضاتها. ولايمكن أن ننطلق من إلغاء ما نعيشه عن طريق افتراض حلول مسبقة قائمة في حقبة سالفة لها خصوصيتها ومستواها التاريخي المعين.وبجملة مختصرة، أزمتنا مركبة. معقدة، وهو أمر طبيعي، لكن مجتمعنا لايمكن أن يستعيد دورته الحيوية باللجوء إلى اختزال التعقيدات والعلائق والتبشير بحلول أثبتت نجاعتها، نسبيا، في سياق قديم ...

يعلو اللغط من جديد، وتتعانق أصوات المؤيدين والمخالفين، وتبدو حلقة هؤلاء الشباب كأنها مجلس أعلى مكلف بالوصول إلى مخرج ينهي مخاوف الأمة ويبدد الغمة. وكل واحد يستنجد بما قرأ وسمع، وبما تلقنه واستجاب له في حزبه أو محيطه السياسي. ومن حين لآخر يأتي «مرسل» من العريس ليطلب منهم أن يخفضوا أصواتهم حتى لا يشوشوا على الجوق وعلى المستمتعين بالموسيقى الأندلسية، لكنهم سرعان مايعودون إلى مناقشاتهم ومبارزاتهم. وأطل عليهم وجه الهادي بابتسامته الساخرة وذقنه المرسل، فهرعوا إليه يجرونه إلى حلقتهم ليشارك معهم في مجادلاتهم ويكون حكما بينهم. وقال له فتاح:

– هذه فرصة نادرة تتيح لك يا عمي أن تتعرف على رأي الشباب،

لأن ما تنشره في صحيفتك اليسارية هو كلام الكبار عن شبابهم هم، لا عن الذين هم، رسمياً شباب الأمة ومناط آمالها...

وأجاب الهادي ضاحكا:

– بداية هجوم موفقة، ولكن دعني أقول لك ولأصحابك بأن صحيفتنا تنشر كل فضائلكم: من الاضرابات والاعتقالات والمحاكمات إلى تعاطي الحشيش والمتاجرة في المخدرات وتكوين عصابات السطو على المنازل ... لافرق بين غنيكم وفقيركم: أولاد الأعيان والوزراء يموتون نتيجة تناولهم «أوفر دوز» وأولاد «الأوباش» يهلكون كالحشرات وهم يكرعون عصير الجوارب .. أليس كذلك ؟

وفي غمرة الضحك ارتفع الاحتجاج على ماقاله الهادي، وتساءل البعض عما إذا كان الشباب جميعهم بهذه الصورة، وهل تعود المسؤولية إليهم أم إلى الساهرين على المجتمع الخ... وجاء صوت يقول في وثوق ونبرة حاسمة:

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

– أعتقد أن لبّ المسألة هو في انعدام الجسور بيننا وبينكم. أنتم جيل ممتلىء حتى الاكتظاظ برسالتكم التاريخية، بالرغم من أن التاريخ، كما يقول أحدكم، قد خانكم، ومع ذلك تواصلون السير على أمل أن تقتربوا من مثلكم الأعلى .. ونحن فتحنا أعيننا على الخواء، وكثرة الطنين بعد حوادث التعذيب وهبات اليائسين. كيف يمتد الحوار بيننا وبينكم، مهما تكن القرابة، وأنتم مستقرون داخل «وضعية» مادية ومعنوية تجعلكم بشرا، بينما نحن مطلوب منا أن نعيش بلا أفق، بلا أمل، بلا عمل ؟

وقال فتاح: صحيح، اللغة المشتركة بيننا وبين الذين سبقونا على طريق حلم التغيير، مفقودة مما يحيلنا إلى حاضر بدون ماض، ويحيلهم إلى ماض بدون مستقبل. ومع ذلك، فإن السؤال المشترك الذي يحاصرنا جميعا الآن، هو كيف نخلق الفعل ونعيد ابتكار لغة التواصل بين الفئات ذات

المصلحة في التغيير، داخل وضع سديمي، زئبقي، يشل العزائم والارادات فيما هو يوحي بالحركة ورغد العيش ؟

وهمّ الهادي بالكلام، لكن فتاة قاطعته وهي تقول ضاحكة:

– لقد كنتم تتغنون في أناشيدكم قائلين: «نموت جميعا ويحيا الوطن»، لكننا نجد أن كل ما حولنا يدفعنا إلى الكفر بهذا الوطن.ثم من يضمن لنا أن موتنا من أجل الوطن، سيغير الأشياء إلى أفضل ؟

ورفع الهادي يديه في حركة تترجم الحيرة ثم قال متردداً:

– هذه الأسئلة والاتهامات ليست غريبة عني. أنا أيضا أطرحها على نفسي وأتخيل جزءا من ألمكم داخل وضعية لستم مسؤولين عنها، ومع ذلك لا مناص لكم من مواجهتها. قد يكون الفارق بيننا هو السن، فبعد الخمسين سنة، تبدأ «الحكمة» تعوض الحماس في سيرورة شبه فيزيقية يسندها منطق عقلي حذر، فنبدو كأننا تماثيل شمعية. لعل الأحلام ما تزال قائمة وتجربة الشباب لم تتبخر، لكن النظرة تتحول تدريجيا إلى التأمل والاستبطان. ما يبقى متوثبا، متحديا، هي القيم التي أكدت لنا تجربتنا أنها ضرورة لوجودنا ولانتمائنا الانساني، ودفاعنا عنها هو ما يمنح معنى لحياتنا وسط العبثية والوحشية وخرائب الطغيان. وأظن أن نقطة الالتقاء بيننا هي هذه القيم التي يكتشفها كل واحد عبر مساره الخاص فيختار أن ينحاز إليها، أو يفضل التنكر لها والانضمام لممثلي قيم الزيف والتحايل. والسؤال المرعب، عندي، هو: كيف سيكون موقفكم إذا استمر تدهور القيم وتزييفها بالوتيرة نفسها التي نعاينها اليوم ؟ أحس، شخصيا، أن عدد الذين يستبطنون تلك القيم الايجابية ويربطون بها حياتهم، يتناقص، ليس بسبب طبيعة فطرية في الناس ولكن نتيجة للوسائل الجهنمية التي أصبحت متوفرة لدى أصحاب السلطة. وشعار هؤلاء كما تعرفون: من يركع يعش. ومن يحترم نفسه يحاصر. أنا أحدثكم هكذا لأنني أعبر عن إحساس يلاحقني منذ سنتين، وقد يكون إحساسا مسرفا في القتامة ومتعارضا مع ما تقوله تحليلات الأحزاب والأدبيات

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

السياسية (بما في ذلك ماتنشره الصحيفة التي أرأس تحريرها).. ذلك أنني لم أعد أجد فيما يكتب صورة لتفاصيل المعيش، والمسكوت عنه، والساري مسرى القانون .. يخيل إلي أن هذه فترة لا يحدث فيها شيء، أو بالأحرى تحدث أشياء كثيرة بدون أن تخلف الانطباع بأن ماحدث يستحق أن يسمى فعلا. كأن التبدلات تجري خلسة. نحن هنا ننظر إلى الشاشة، نرى أحداثا مكرورة، نسمع وعظا وإرشادا وسرداً لا ينتهي للمنجزات وتأكيدا على أن مجتمعنا ثابت متماسك كالبنيان المرصوص .. ثم ندير أعيننا إلى الشوارع والبيوت والمدارس والسجون والمستشفيات، فنجد أن الأحوال تبدلت في اتجاه غير ما زعمته الشاشات والمرايا وصنادق الصدى والانتخابات وأبواق الكلام. كيف حدث هذا ومتى ؟ نحن هنا دائما نتحرك، نتكلم، نحتج ونعارض .. لكن هذه التبدلات كدخان القاطرة يجتاح خضرة الحقول فلا نرى إلا هباباً. أنا أعتبر ما عشناه بمثابة كابوس هاملت: ثرثرة بالقنطار، ثرثرة ترد على ثرثرة، والفعل غائب وراء كلام يؤجله إلى ما لانهاية. الثرثرة جميلة، كما تعلمون، لها خدرها الساحر ودفئها الأخطبوطي .. وأظن أننا نعيش الآن عهد الثرثرة السابقة للفعل، وزمنها شبيه بزمن الاحتضار ومع ذلك نعيش على رجاء أن نولد من خلال الفعل.

www.lilas.com/vb3
MALLOULI

– برافو ! صاح فتاح. كل هذه الفذلكة لتعلن لنا أننا سنولد من جديد ؟ نحن، إذن الآن غير موجودين ومشكلاتنا أوهام وتخريف ؟ أظن، ياعمي أن عامل السن الذي أشرت له هو الذي جنح بك إلى هذا التعالي على الظرفيات .. نحن نطلب منك ضوءا قليلا ينير خطواتنا هنا والآن، وأنت تهدينا نورا كاملا بعد الميلاد والبعث ...

وتعالت الأصوات مرة أخرى، وتشعب الحديث إلى المواقف والتفاصيل ولكن الهادي وقف بعد قليل معتذرا بأن عليه أن يعود إلى مجالسة المدعوين، ثم أضاف: «لاأحد يستطيع أن ينير طريق الآخر، لكن ما آمله هو ألا تظلوا رصاصة سجينة داخل ماسورة البندقية. ليس هناك أفظع من الرصاص الصدىء. لكم أن تحللوا وترفضوا إلى أبعد حد، لكن احرصوا

على أن تبلوروا لغةً مقنعة تمد الجسور بينكم وبين من سيتيحون لرصاصاتكم أن تصيب هدفها ...»

وعند منتصف الليل وصلت العروس مرتدية فستان زفاف أبيض وقد انسدلت شبكةٌ على وجهها ومن حولها بعض أقاربها. استقبلها عزيز على الباب. ورفع الشبكة ثم قبلها واتجها إلى وسط الدار بالقرب من الجوق ليستقرّا على كرسيين وضعا فوق مصطبة خشبية. بعض الأصوات تهتف: «الله يبارك في عمر العروسة والعروس، أبايع» ثم أخذ الأهل والأصدقاء يتقدمون للسلام على العروسين وأخْـذِ صور معهما. والنكافة تصر على اتمام الطقوس بالرغم من أن العروس لا ترتدي الزي التقليدي والمساحيق الفاقعة والنقط البيضاء .. العروس تتأفف بعض الشيء ولكن النكافة ماضية في تعدادها: «ها الزين الفاسي، هاهو. ها الحوت البوري، هاهو. ها العسل الحر، هاهو. هاقضيب الخيزران، هاهو ...»

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

وجيء بمائدتين مدورتين لحمل العروسين عليهما والطواف عل البيت حسب ما تقضي به التقاليد، فهجم الشبان عليهما وأجلسا كل واحد على مائدته ثم رفعتهما السواعد وسط الأغاني والمرددات الجماعية، وعين كاميرا الفيديو تتابعهما لتخليد المناسبة السعيدة. وكانت فرصة للرقص أظهرت فيها كل فتاة عزباء ما تنطوي عليه من لدونةٍ ورشاقة وحساسية هي من نصيب ابن الحلال الذي قد تقع عيناه الآن عليها، وينفذ سهمها إلى حجره !

وتمتد الحفلة إلى الساعات الأولى من النهار، والجوق الاندلسي يشنف الأسماع ويعيد، والعروسان يتبادلان الهمسات ويبتسمان للأهل والأصدقاء، وكؤوس الشاي والحلويات تتوالى إلى أن حان موعد الخروج للطواف في السيارات عبر المدينة، تتقدم الموكب سيارة العروسين وتعلن عنهما كلاكسونات موقعة تصر على أن توقظ النيام ليشاطروا أهل العروسين فرحتهم.

يقول راوي الرواة:

لم يكن الأمر هينا في هذا الفصل، ساءت العلاقة بيني وبين المؤلف إلى حد القطيعة والتخلي عن التعاون والتنسيق، ولولا وسطاء الخير، لكان الذي يتحدث إليكم مباشرة، الآن، هو المؤلف، مواجها معضلات السرد والترتيب وتوزيع الكلام. والحقيقة أنني لم أقبل استئناف مهمتي إلا بعد موافقته على أن أحكي للقارىء بعضا من خلافاتنا. ولأبدأ من عنوان هذا الفصل. فهو يرى أن أمارات وعلامات وظاهرات كثيرة تفصل زمن سيد الطيب وسي ابراهيم، ولالة نجية والطايع والهادي، عن زمننا هذا، ولابراز ذلك يلزم أن نرسم للقارىء ملامح عامة وأخرى خاصة تقنعه بأننا نعيش في زمن آخر قياسا إلى الفترة التي جرت فيها أحداث الفصول السابقة. وفي نظري، وهذا مصدر الخلاف، أن الزمان يتغير نتيجة لوعي الناس بتجربتهم مع الزمان. وقد تكون تجربة متشابهة في العمق ولكن مسافة اكتشاف العلائق مع الزمان، من الغرارة إلى النضج، هي التي تسبغ الجدة على الديمومة وتقوى الوهم بالانتصار على الموت البطيء الكامن في خطى الزمن الوئيدة. نستطيع بوعينا، إذن، أن نراقب منشار الزمن وهو يقرض ساعاتنا وأيامنا، ولكننا في غير حاجة إلى انتظار «نهاية» زمننا لنقول ما الذي تغير فيه. دائما هناك حاضر يأخذ الأولوية على الماضي ويجعلنا مع الحاضر الناقص ضد الماضي المكتمل. لذلك يصعب أن نحدد زمن شخوص الفصول السابقة بفترة معينة ومعظمهم ما يزال، في النص، حيا يتكلم. وهل يكفي سخطهم على الحاضر لنعلن انفصالهم عن هذا الزمان وناسه، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار معايشتهم لأبنائهم وبناتهم وأقاربهم، لا مجال للتردد، في نظري، إذا أردنا أن نصور الزمن الآخر من أن نفترض الامتداد والتداخل، ومن أن نجعل مظاهر الانقطاع أقل مما قد توحي به الأحداث «الخطيرة» والاحصائيات، وتبدل القيم.

قلت للمؤلف: لاداعي لأن نجزىء الزمن إلى زمنين: وأبسط من ذلك

www.lilas.com/vb3
MALLOULI

أن نعتبره سرمدا متجدد الآنية، له قوانينه وثوابته، وأن نتابع التغير من خلال الشخوص ومواقفها وسلوكاتها فهي التي تعاني من وطأة الزمان، وهي التي تقاوم وتتحدى وتتمرد وترضخ، وتتحايل بالفلسفات والكلام لاطالة بقائها داخل موكب الزمان. يكفي أن نستمع إلى ما يقولونه الآن وما يفعلونه ونقارنه بما كانوا يقولونه ويفعلونه لندرك ماطرأ عليهم من تغيُّرٍ.. أما أبناؤهم ومن يعايشونهم فهم بعد في تجاربهم الأولى مع الزمان.

قال المؤلف: مفهوم، وقريب من البديهي ماتقول. غير أن هذا لايمنع كون الزمان الذي نكتب فيه نصنا الروائي له سماته المميزة مثلما لكل مخلوق: أنف معقوف أو عجيزة مائلة، أو خال فوق العين ... سمة نتذكره بها ويقترن في ذاكرتنا من خلالها. مثلا، كيف أتحدث عن شخوص مستوحاة من هذا الزمان ولا أتحدث عن سماته البارزة التي غالبا ما توجِّه سلوكاتهم ومواقفهم ؟

قاطعته: كلام قديم وتعميم لم يعد يقنع أحدا. انتبه فقد تنزلق إلى التناقض فتعارض ما كتبته في الفصول السابقة. التاريخ له أكثر من مستوى ومجرى، وقلما يكون في حقيقته مطابقا لما يجري في السطح وتشخصه الأحداث الطنانة .. وانت بعد عائش في مجتمع لم يكتب تاريخه البعيد، فضلا عن أن تاريخه الحديث موصوف بالسرية ووثائقه مكنونة في خزائن مختومة بالسمع حتى يظل سكان المملكة مشغولين بمستقبلهم ! والمؤرخون يغيرون مدادهم من فترة لأخرى كما تعلم.

www.liilas.com/vb3
MAI LOULI

استأنف المؤلف: أنا معك فيما تقول، ولكن ما أقصده ليس تاريخا بل عناصر تخصص فضاء الزمان الذي نعيش فيه وإن كنا لا ندعي فهمه. ربما هي عادة ببغاوية، ولكنها قد تسعفنا على اكتشاف ماوراء السمات البارزة.

قلت نافد الصبر: وما هي هذه الملامح التي تريد أن تقدمها سمات مميزة لهذا الزمن الآخر ؟

قال: مايعرفه كل واحد، وما هو شائع وذائع على الألسنة وأحيانا في الجرائد والاذاعة والتلفزة. مثلا، جماعة المليارديه التي أهلت علينا منذ بضع سنوات وبدأنا نتعرف عليها من أخبار تتسرب عن الحفلات التي يقيمها كل من اتسعت ثروته وأدرك عتبة المليار سنتيم. وقد يقيمها الفرد الواحد عشرات المرات .. أليس في ذلك علامة على الدينامية وحيوية المبادرة التي أفسح لها المجال عهد الاستقلال ؟

قاطعته معترضا: الحديث عن هذه الظاهرة سيُعتبر من باب التعريض بسمعة بعض كبار موظفي الدولة، وقد يتسبب لك في متاعب لست مستعدا لمواجهتها. أنسيت صفقة شركة «بناما» وتورط بعض الوزراء وكتاب الدولة في الرشوة والاختلاس، والمحاكمة التي ظنها الجميع بداية للتطهير، ثم آلت الأمور إلى ما تعرف، ولم تنقص ثورة المليارديه شبرا ولا اصبعا عما كانت عليه ؟ لماذا تريد ان تفتح بابا لن يأتيك منه إلا الوجع وصداع الرأس، مع أنك تريد الكتابة عن لعبة النسيان وطرائق تحاشي ما يؤلم النفس ؟

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

قال المؤلف وكأنه اقتنع بما قلت: طيب. لنترك هذا جانبا، لكن ألا تظن أن استحضار ما يقال عن نشاط فتياتنا في الخليج وبعض دول أوربا، مؤشر يستحق الاثبات ؟ أظنك لا تجهل دور فتياتنا في مجال التسرية عن الذين يعانون من الوحدة ويطلبون اللهو والمتعة العابرة. وفي ذلك تغزيز لرصيدنا من العملة الأجنبية، فضلاً عن أنه نوع من الحلّ لمشكلة البطالة.

قلت محتدّا: أوف ! انت مصرّ على الوقوع فيما تحاول الهروب منه. هل نسيت أن هذه الظاهرة ارتبطت بسلوك بعض فتيات جامعتنا الموقرة اللائي بدأنها بالداخل قبل أن يتسربن إلى الخارج عبر شبكات تقول الشائعات أنها أخذت تشترط الحصول على الاجازة، إلى جانب إتقان الرقص وأساليب الفرفشة ؟ ومعنى ذلك أن كلامك لن يفهم على أنه سمة مميزة لهذا الزمان، بل سيعتبر مسا بحرمة الجامعة التي يسهر على حمايتها جنود

«الأواكس» المكلفين بردّ الصاع صاعين .. فهل أنت مستعد لمثل هذه المعركة ؟

قال مصطنعا الهدوء: لك موهبة قراءة مابين السطور أكثر من قدرتك على مساعدتي في سرد روايتي. لكن ماقولك في تشخيص بعض المحاكمات، لاأقصد المحاكمات السياسية فهي سمة كل الأزمان، ولكن أقصد محاكمة الشباب الذين ضبطوا في عمليات المتاجرة بالحشيش والهيُروين ول.س.د، وبقية المشتقات ؟ أليس في ذلك إنصاف لحكومتنا الرشيدة الساهرة على حماية المجتمع ووقاية الأخلاق من الانحراف؟ وفي الوقت نفسه علامة على ما تصدره إلينا أوربا وأمريكا من أوبئة فتاكة ؟

قلت مصطنعا نفس الهدوء: لاأجد يرتاح لذكر المحاكمات ولو كانت لصالحه. دائما هناك عناصر غائبة في الملفات أو ملفقة... ودائماً هناك احتمال ظهور شاهد جديد، أو تصريح لقاض وهو يحتضر .. لذلك يسعى الجميع إلى طمر المحاكمات بعد أن تكون قد أدت وظيفتها الظرفية. ثم إن مثل هذه الوقائع والأحداث عادية ومألوفة في كل مجتمع وعلى امتداد العصور، ولايمكن ان تعتبر سمة مميزة. وكل ماذكرته لحد الآن يبرز السلبيات، في حين أن التميز الذي يستحق هذا الاسم، يجب أن يتوقف عندما هو ايجابي. انس السلبي وتذكر الايجابي، لأنك في حالة العكس تبطل لعبة النسيان.

صاح المؤلف: ما أكثر الايجابيات ! الجميع يعرفها، وهي بالفعل سمة مميزة لزمننا. أنا أذكر لك منها ثلاثة: فوز عويطة ونوال المتوكل في بطولة العدو البري العالمية، واقترابنا من الكأس في مباريات المونديال بمكسيكو، ثم الشروع في تشييد نفق يربط ضفاف إسبانيا بأرض المغرب.

قلت مستفسرا: ظاهرة عويطة وتفوق فريقنا الكروي في مكسيكو، فهمنا ها، تؤكد بالعربي الفصيح: كل ورجلاه، وإذا ضاقت سبل العيش أمامكم، فاستعينوا على قضاء حوائجكم بالرجلين. ولكنني لم أفهم بعد

إيجابية النفق الواصل بيننا وبين الجيران الشماليين.

قال المؤلف مبتسما: آن لك أن تفهم قيمة الجغرافيا. سنصبح صلة وصل بين قارتين، وستحمل السيارات والشاحنات والدراجات النارية والهوائية آلاف الزائرين والزائرات من أوربا إلى افرقيا، والعكس بالعكس ... معنى ذلك أننا سنصبح امتدادا لقارة عظيمة نتزود منها بكل شيء. وكل مواطن يستطيع أن يجتاز الطريق البحرية ليفتح عينيه ويتعلم ويستفيد بالاحتكاك، أي نعم بالاحتكاك. وهذا أحسن تجسيد لتقارب الشعوب وتعاونها.يكفي أن ننتبه إلى موقعنا وأن نستفيد من منحة الجغرافيا لنحل جميع مشكلاتنا. أبواب الأمل، إذن، مشرعة لأن بلادنا ستنفتح حقا على قارة العلم والتكنولوجيا والسوق الأوربية المشتركة .. فهل أدركت الآن أهمية النفق الواصل بيننا وبين الشمال؟

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

طال الحوار دون أن نصل إلى اتفاق. ردد المؤلف على مسمعي أكثر من مرة، ماكتبه في مخطوطه عن أن معضلة الرواية هي الكتابة عن زمن منته داخل سيرورة غير منتهية، مما يجعل الحديث عما هو طازج بعد، هشاً، فاقدا لتضاريسه .. وتبين لي، في النهاية، أنني لو انسقت لهواجسه وتأملاته، لاعدنا رواية ماسبق بطرائق أخرى من غير أن نتأكد أننا لن نعود إلى تحويرها. وبما أنني عُيِّنْتُ راوياً للرواة وأصبحت لي مسؤولية أمام القارىء، فقد تشبث بحقوقي المكتسبة وطالبت بايقاف سيل الوساوس والتساؤلات، وهددت بتقديم استقالتي، أي نعم، أستقيل قبل أن أقال ... فلم يبق أمام المؤلف إلا أن يلجأ معي إلى التراضي:أتولى أنا بنفسي سرد هذا الفصل الخاص بـ «زمن آخر»، آخذاً في الاعتبار ماقاله ودونه عن السمات الوقتية المميزة مُثبِتاً في البداية «الاستهلال» الوارد في مخطوطته على لسان المادي، [illegible] أن أصوغ الفقرة الأساسية من خلال وصف حفل زواج [illegible] لأن الزواج – لحد الآن على الأقل – ما يزال مرآة [illegible] والسلوكات وما يفلت من الألسنة. إنني أتحمل أمامك أيها [illegible] مسؤولية سرد هذا الفصل حتى يطمئن المؤلف.

من يذكر منكم أمي

تعتيم:

أصباح شهر أغسطس تغزوني وأنا بعد ممدّد على الفراش، خلف جدار من زجاج يَخْتَرقُهُ ضياء ساطع، قوي ومقتحم، شفافيته تختلف عن ضياءات بقية أشهر السنة. أحسُّني أغوص في أنواره وأنا أتطلع الى السماء الصافية الزرقة والى أشجار صفصافٍ تبدو هاماتها قريبة من مسقط نظرتي الصادرة عن الطابق الرابع. أبقى مطوّحاً في أصقاع بقايا أحلام الليل، أو على حافة حُلْم يقظة يُخدّر الحواس ويشل فيّ الحركة. كم يبدو، عندئذ، صعباً العبور إلى منطقة اليوميّ والانغمار في الأفعال المحسوبة.

تتسكّع عيناي في بطء وتثاقل وأنا أحاول أن ألتقط الأشكال المربعة والمستطيلة والمثلثة التي تبدو عند الجزء الأعلى من العمارة الجانبية، وما يصدر من أصوات عن أطفال يلعبون في حديقة العمارة، أو عن سيارات ودراجات نارية. وأحس أن التلكؤ طال، وأن ما أحتاج إليه لأغادر الفراش هو استحضار تلك الصورة المتخيلة التي توقف لديّ الاحساس بالتكرار والرتابة. أغمض الجفنيْن متصيّدا ملامحها: سديم تذكّر غائم القسمات، تتوسّطه صورة امرأة هشّة الجمال، دقّت تقاطيع وجهها واستدارات جسدها حتى كأنها طيف نوراني تنفخ عليه فيطير سابحا بغير أجنحة.. غير أنها مع ذلك امرأة أكثر جسمانيةً من كل النساء اللائي عرفتُ.. امرأة تنبش الرغبة ــ الشهوة الغافية وتحيلها «حية» تزحف على قدميْن. أضم الصورة ــ الطيف بضع دقائق وأنا مسبل الجفنيْن ثم أهب، فجأة، واقفا لأندفع إلى الحمام.

مرت سنتان على وفاة أمي. انطفأت قبل الأوان. ولم أقتنع

بشروحات الطبيب، بل وجدت أن قلبها لا يمكن أن يقاوم أكثر وهي التي كانت تريد أن تحمله هموم كل الناس. غمرني شعور كاسح بالوحدة والعبثية، فحاولت أن أداريَه بمضاعفة ساعات الشغل والاجتماعات، والسهر مع الأصدقاء، والبحث عن اللّذة المباحة والمحرّمة. نهم غريب يقود خطواتي، ونهيلية مريحة تنشر غلالتها عليّ، وأنا أركض بدون انقطاع. وكلما لاح وجهها في لحظات استجمام أو عياء، تَمْتَمْتُ مترحما على روحها لأنهي المشهد. سنتان مرّتا في دوامة العمل والسهر والمغامرات العابرة، لكن وجهها المدوّر، الودود، كان قد عرف طريقه إلى ذاكرتي. كان وجهاً صموتاً في معظم اللحظات، وحتى في الأحلام لم تكن تتكلم كثيرا. أنا الذي كنت أكلمها ــ على غير عادتي معها ــ بحماس وحرارة، وغالباً ما تقترن مشاهد الحلم بتقبيلي ليديها ووجهها الذي احتفظ بنضارة ما قبل مرضها.

وبدأ حوار صامت بيني وبين أمي الراحلة. لم أكن أدري ما إذا كانت تحدثني في دخيلتها كما كنت أفعل. ووجدت أن الكلمات باهتة تغلف أكثر ممّا تجلو، بل وجدت الأسئلة التي يطرحها عليّ وجهها العائد، مقلقة، وموقظة للشكوك. ما معنى أن يكون لنا أمّ ؟ أجبْ من غير أن تلجأ إلى فرويد ولا إلى النصوص المقدسة؛ أجبْ في غيبة الأب، ودون أن تلجأ إلى العقل المحلّل ولا إلى الحاسوب. أتلعثم وأسْهُو. الأم لا يُسأل عن سبب وجودها،أتمتم.تملأ الحيّز الهش،العطُوبَ، في نفوسنا وتجعلنا نرى المعنى حيث تنتفي الدلالة، وتتداعى الترابطات. أقول الآن إنها كالشعر: رغبة في معانقة المطلق، تفتح لنا أبوابها بالذات عندما تبدو الأبواب جميعها موصدة. أبداً لم يخامرني الشعور بالافتقاد وهي حية مشعة بحضورها الذي يبدّد، عندي، سحائب الارتياب والحيرة والضياع. هل غيابها هو ما يجعلني أرسم ملامح مُثلى لصورتها ؟ حتى في لحظات التوتر بيننا كنت أجد فيها ذلك الوجود لذاته الذي يتحدى غضبي وتمرداتي وأوهامي المصطنعة. هي هنا، كانت، كالجذر الضارب في أعماق التربة، لا تزعزعه عواصف ولا تطاله أعاصير. سابق وممتدّ، وجودها، تسرب إلى ما بين المسامّ ليذكرني، كلما غفلت،

www.lijlas.com/vb3
MALLOULI

أن شعلته المحرقة لا تخبو، كالحنين إلى الوطن، كالشوق إلى تربة مسقط رأس، وكأهازيج الشعر الكامنة في الوجدان.

واستقرت لديّ عادة استحضار الأم من خلال التذكّر، ومن خلال مساءلة الأهل والأقارب، كانوا يضحكون أول الأمر وأنا أستفسرهم: هل تذكرون أمي ؟ ثم يجيبون بكلام عام: «الله يرحمها روح. من خيرة عباد الله. اللطافة والظرافة، الموت ما تَتْعبّي غير بنادم المزيان...» وسألت سي ابراهيم فقال: «امرأة ربانية لالة الغالية. كانت أسيدي مولاي دايماً تتقوم تصلي الفجر. وكنت تَنَلْقَاها سبقتني للصلاة وهي رافعة كَفُفْها تتدعي معكم. الله يلحقنا بها مسلمين..».

وكنت مرة في اجتماع حزبي يتضمن جدول أعماله السؤال الخالد: ما العمل ؟ على إثر سلسلة حملات من القمع والاعتقالات. كان جو القاعة مكفهراً، وقسمات الوجوه مشدودة وشبح الخوف يطل من بعض العيون. وطال النقاش وامتدت التحليلات، وتكلم ممثل القيادة عن الظروف الصعبة وعن ضرورة الحذر واليقظة ومضاعفة الجهود لتنظيم الصفوف وتعميق الوعي.. ورفع شاب يده طالبا الكلمة، ثم وقف منفعلا وقال: «هاذ الشيء اللي سمعناه الاخوان كلو مزيان، وحنا متفقين عليه، وماشي هذي هي المرة الاولى اللي تنقولوه فيها.. إنما أنا سمحوا لي نقولكم بأنني ماشي مقتنع بزاف بأن هذا هو الطريق.. تيخصنا نفكرو فشي حاجة اخرى تكون مناسبة لهاذ التصعيد ديال القمع...» سأله المسؤول الحزبي: «بحالاش ؟ عندك شي اقتراح ؟». أجاب الشاب: لعلكم ستضحكون ولكنني أرى أن ما يمكن أن نفعله ويكون مناسباً بعض الشيء لهذه الوضعية العبثية التي نعيشها، هي أن نخرج إلى الشوارع ونطلق النار على المارّة من غير تمييز.. أما أن نبقى هكذا نقول و..».

قاطعة المسؤول الحزبي: «شوية ديال الجدية الأخ.. هذا اجتماع مسؤول ولسنا في مقهى للسرياليين.. الطريق طويلة والتغيير لا يأتي بالتمنيات..»

www.lilas.com/yb3
MALLOULI

خيّم التوتر على الاجتماع وبقينا نتبادل النظرات في حرج والشعور بالمأزق لم تُبدّده التدخلات والملاحظات والتحليلات الموضوعية. انتابني ضيق شديد ووجدتني أرفع يدي لأطلب الكلام. وقفت بهدوء وتنحنحت قبل أن أقول: «لاتؤاخذوني أيها الاخوان فأنا لدي سؤال يشغلني منذ فترة وهو: هل تعرفون أمي ؟ هل أحد هنا يتذكرها ؟».

خَبَطَ المسؤول الحزبي يده على الطاولة وهو يقول: يقيناً هذا المساء كلكم سرياليون».

صاح أحد الحاضرين في عدوانية ظاهرة: ولماذا لا تسألنا عن أبيك أيضا ؟

قلت بنفس الهدوء الذي طرحت به سؤالي: أبي لا يهمني كثيراً، مات وأنا لم أتجاوز الثانية من عمري وعندما كبرت رأيت صورته وقالوا لي إنه أوصى بأن يدخلوني لجامعة القرويين ولم تتحقق وصيته ولم أفتقده أبداً، لذلك لا أسألكم عنه..»

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

عاد المسؤول الحزبي إلى التدخل ملحا على أن نلتزم بما جاء في جدول الأعمال. وكثر اللغط ولكنني تابعتُ الكلام: إنني جديّ فيما أقول ولم أبتعد كثيراً عن موضوع اجتماعنا. وأعتقد أنه بدلا من أن نلوك الكلمات والتحليلات الجاهزة، يمكننا أن نتعارف أكثر، أن نحكي عن طفولتنا وأمهاتنا، أن نتكاشف قليلا لنتساند في هذه الظروف الصعبة.. أما الكلام هكذا من الحلقوم إلى الحنجرة فانه يزيد شعورنا بالعزلة والخوف والخواء.. أنا أقترح عليكم أن أحكي لكم ما فعلته أمي في حياتها وأن تحكوا لي عن أمهاتكم وآبائكم وعن كل ما يجسد القيم التي نجتمع في إطارها.. نحن الآن نعلم أن المطلوب منا هو الاصرار على البقاء بالرغم من نوايا خنقنا، وتقليص دائرة تأثيرنا.. من أين نأتي بمثل هذه القوة، إذا لم...»

كلام على كلام. قالوا، قلنا.. قالوا، قلنا.

أعصاب متوترة وشعور بالعجز. انزواء في البيت واستحضار هوسيّ

للأم الراحلة. أهرب إلى رحابها لأدفع عني الشعور بالقهر والضيْم. في الشوارع، كأنما أجسام الناس تتضاءل من الخوف كلما تفاقم القمع. يتكاثر الهمس، ويعود الرجال مبكرين إلى منازلهم، وتظل سيارات «لارافْل» تجوب الشوارع في خيلاء وانتصار !

كيف يستمر المنهزمون في الحياة من غير أن يتخلوا عن قضيتهم ؟ وجدت سؤالي شقشقة. وكيف يعيش المهزوم في الحب أكثر من هزيمة ؟ وهل ينفعه تدْبير مسبق ؟ وهل يرعوي القلب الذي تُثخنه الجراحات ؟

تنهشني الأسئلة. على امتداد أفق قاتم، لم تكن تتخايل أضواء أو ابتسامات. أصابني الذعر لأن الفرح هَجَر النفس. وكنت في خلوة مع أمي فقالت لي: الكآبة أيضا تُؤبّد الهزيمة. كان هناك، بالفعل، ستار صفيق يحجب عني الضحكة المبثوتة في منعطفات الأزقة، وبين ثنايا الأحاديث، وعلى شفاه الناس. ستار يُباعد بيني وبين الفرح التلقائي الذي يشدنا الى اليومي ويجلو الصدأ.

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

لكن لا مجال، بعد كل شيء، لأن ألعب دور المخدوع. هل تُسعفني الذاكرة ؟ من قال كلاماً يطابق حالتنا ؟ لابد أن من سبقونا قالوا كلاماً في الموضوع. من قال ؟ هل تتغلب الذاكرة على لعبة النسيان ؟ نحن أيضا نسقي شجرة تحتضر، غير أنه ليس من المؤكد أنها ستحيا؛ ومع ذلك لا نملك إلاّ أن نسقيها علّ الأمل يُزهر فوق أغصانها. الزمان بيننا. زمن تجدّده حيوات تحبو على مدارج الطفولة أو تتشكل، ما تزال، داخل أرحام الأمهات.

كان سي ابراهيم يجلس إلى جانبي، ولالة نجية في المقعد الخلفي، وأنا أسوق السيارة شارد الذهن، غارقاً في خواطر أسيانة. كنّا في طريقنا إلى منزل الطايع، بعد أن بلغنا خبر اعتقال ابنه فتّاح. آخر مرة رأيته فيها، كانت أثناء حفلة عرس عزيز وسعيدة. أتذكر كلماته المتحمسة وانتقاداته الجريئة. كنتُ أعزه وأخشى عليه، ولكنني أعلم أن أحداً لا يستطيع أن يعوّض تجربة

الآخر. أن يتفجروا ويرفعوا أصواتهم، أفضل من أن تُزنجر الكلمات والمشاعر في نفوسهم فَيُصابوا، مثلنا، بالخُناقيّة التي تجثم على حلوقنا.

أستعيد، دفعةً واحدة، جميع ما أفرزته السنوات الأخيرة من اختناقات تسللتْ إلى حياتنا متدثرة بغلائل حريرية. كأنما العيون مفتحة ولا ترى والآذان مصغية ولا تسمع. لكن لا أحد يستطيع أن يزعم بأنه يدرك الخلل ساعة حدوثه. الأشياء تجري سواء حبذت أم اعترضت. أيْ نعم، انظر الآن حولك وحاول أن تستوعب ما ترى وتسمع، لعلك تتدارك غفلتك ساعة جريان الأمور. طارت السكرة وجاءت ساعة الولائم والغنائم. الجميع يتجارَوْن للدخول في الصف، وتلبية الأوامر خوفاً من أن تضيع فرصة الانتهاز. لا مناص. وماذا سيفعلون، يقولون. التاريخ حلّلناه، والاستنتاجات استخلصناها، ولكن لا حياة لمن تنادي. وأن نكون داخل الجهاز، خير من أن نظل خارجه نَتَسَوَّق الريح، ويتأكلنا العجز.نحن في تجويف الموج، هذا كل ما في الأمر؛ ولا بأس أن نُجاري الزمان في دورته ونضحك للقرد في مودّته.. وتلك الايام نُداولها بين الناس.

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

أما ما عدا ذلك، فقد تكفلت به ناعورة الحياة: ليس هناك أسهل من أن تُغري الناس بالاستمرار والتسلّق، أكداساً أكداسا، على قاطرة العيش. كل هذه العمارات، والفيللات الصغيرة، والمجاميع السكنية التي تراها، وأنت في طريقك إلى منزل الطايع، نبتتْ كالفُطر خلال العشر سنوات الماضيات. عدد منها لبعض من أصدقائك. لا يهم. شيء طبيعي أن يتهافتوا على القروض لبناء بيت يأوون إليه بعد أن فتحوا أعينهم فوجدوا أنهم وعائلاتهم واقفون على «الكصّ» ثم إنه ــ يضيفون ــ «ما كاينّ ما يدّار»، على الأقل يشغلنا الانغمار في مشكلات الاسمنت والأجور والتصاميم عن همومنا، ويقنعنا بأننا نستطيع بعد أن نبني شيئا ملموسا... ابن وعمّر. من لا بيت له، لا وطن له. أي نعم. ومن له بيت بدون وطن، يكون منفيا أو شريدا. فلنتشبث بالأحجار، ولْنَحْتَمِ وراء الاسمنت ثم نتعلم كيف نصالح المجتمع والدولة قبل أن نصالح أنفسنا....

كلام على كلام. قالوا، قلنا.. يقولون، ونقول...

أي نعم، مناخ الخوف يقلص كل شيء، وطقوس اليومي المكرورة تتكفّل بما تبقّى. الغلاء ؟ الرشوة ؟ البطالة ؟ الاحتقار ؟ القهر ؟ ربما. لكن انظر إلى هذه الطقوس، مثل التمائم، تُزَلّق الحصْرِمَ والقتاد وما عاف السبُع، فلا تتوقف الحلوق عن البلع. صيف ساخن، أو صيف بارد، سيّان. طَنَاجِرُ الماكرونة بالطماطم (مطيشة حَمْرَا عكرية) وحلقات المسلسلات الأمريكية والمصرية والأبصار شاخصة مسروقة الوميض. يعتصمون بالبيوت والتلفزيون. والمدينة فارغة إلاّ من رواد البارات ومن لهم القدرة على تناول العشاء في الهواء الطلق. ليل العاصمة كئيب، «مَقْنَاط»، يشيع الاختناق في النفوس. لعلك تهذي؛ ليس هناك من يأخذ بِمُخَنَّقك. اضحك. لا تنظر إلى الأمور من جانب واحد. ماذا يفيد أن تحزن من أجل فتاح الذي اعتقلوه هو وآخرين ؟ عمل يائس ؟ مفتقر «للشروط الموضوعية» ؟ لايهم. دعهم يجربون ثبَج الموج «أن اضرب بعصاك البحر، فانفلق فكان كل فِرْقٍ كالطُّود العظيم».

www.lijlas.com/vb3
MALLOULI

إذا الفُلْكُ تكشفت عن خواء
وتلاشى ما ترنو إليه
فلا شيء آخر حقيقيا سوى رقصاتك
رقصات بدون وِجْهة
محصنة ضد الهلاك
رقصة للذاكرة
وأخرى للنسيان
رقصة للصحراء وأخرى للأمواج
وعلى امتداد الآفاق
تَشْرُد آيات من ضياء.

تحاصرك الكلمات والتداعيات وتشرِّدك: أنت هنا داخل السيارة، وخارجها في الوقت نفسه. تمشي نحو الآني أم تهفو للقاء الكينونة المنفلتة باستمرار، المتمنعة خلف ثنايا الموج ؟ فيما تنفع الطفولة والمراهقة والشباب وتذكرات الماضي ــ الحاضر الحلزونية ؟ فيما ينفع السير نحو الكينونة ؟ هل يسعفك النسيان على مشارفة رحابها ؟ رحلت الأم التي أدْرَكْتَ ــ في لحظات الاسترجاع ــ أنها الكائن المتحقّق خارج التبريرات والطموحات والمشاريع: كالنبض، كالنسغ، كالشوق المداهم. تُطلّ من علياء، أو تكمن في الزوايا، أو تزور في المنام، لتعلمك أن كل تحقّق يمر عبر النسيان، عبر القدرة على سلخ الجلد واستحضار منطق الموتى الذين قتلهم حب الحياة. من كان يردد على مسمعك باستمرار، أنه ما سُمّي الانسان إنساناً إلاّ لنسيانه ؟ كان ينسى أم يتناسى ؟ وكان يجد في هذه الجملة اعتذارا. ولكن ماذا تستطيعه الآن وأنت محاصر بالأسئلة والوقائع التي تَبْهتُ أمامها الكلمات ؟ الرغائب بالشهوات كثيرة. هل تزعم أنك تعرفها ؟ هل نبتت في الطفولة أم عند هبوب الشباب ؟ ألف شظية في الحنايا، والخيبات مكدسة في الأعماق وأنت في كل يوم تكتشف ضرورة أن تبدأ من جديد، أن تستنجد بكل ما تستطيع لتحضر في هذا العالم المندفع، المتحول، المفاجيء بمساراته وكشفه للمكبوت.من وجود إلى عدم، ومن عدم الى وجود، كاللعبةِ التي تفتنك بمجانيتها وجديتها في آن. ودائما تمني القلب بموعد مع الفرح الصاعق: يسرقك، يطوح بك في أصقاع الرغائب المتخيلة ويكشف لك أسرار أجنحة الطير، وعطر الورد، وانتظام مولد الربيع. طال الليل ونعاسي هَرْبان، تقول الأغنية. لكن الأرق مثل النوم، يحملك إلى مناطقك المنسية ويجعلك تنبش لفائفها ولغاتها على رجاء إجلاء الذاكرة من حمولاتها المعوّقة. وتلك الملامح الفاتنة أين رأيتها ؟ وتلك الكلمات النافذة أين سمعتها.. والذين رحلوا، والذين قُتلوا ؟ ويبدأ العذاب.. تنشد الافراغ فيهتز جسدك وتتوفز حواسك، ويعود السديم.. ونعاسك هربان.

www.liilas.com/vb3
MALOULI

وصلنا إلى منزل الطايع. كان مرتدياً جلباباً أبيض ولحيته مرسلة، وتقاطيع وجهه متوترة. إلى جانبه جرائد عربية وفرنسية ومصحف القرآن. كأنما فوجىء لرؤيتي بعد الجفوة التي دامت عدة سنوات. عناق طويل وبعض الدمعات تبلل المآقي، والأخت لالة نجية تشهق في خفوت وهي تقول:

ـــ يحاسبني الله وهاذ النعمة إيلا مبارح وقفت علي لالة الغالية في المنام وهي تتقول لي: ف الشدة فاش لَخُّوتْ تيحتاجو لاخُّوتهم. يحاسبني ربي وهاذ النعمة ياخيي.. وهي لابسة شالها الابيض وجلابيتها الكحلة.. فقت من نعاس وقلت لسي ابراهيم: والو، لازم دابا نمشيو لعند الهادي وندیوه يتصالح مع الطايع.. وكنت ما زال ما سقت اخبارْ قبوط فتاح..»

وقال سي ابراهيم: هاذ الشي ما جابْ الله، حتى شدة ما تدوم، والحبس مخلوق للرجال.. إنما أسيدي مولاي، ما عَارْفينْشْ البلاد فين غاديا، وفين غادي يوصلنا هاذ الشي.. الله يعمل تاويل...».

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

وسألت الطايع عن التهمة وعن المجموعة التي ينتمي إليها فتاح، وعن تاريخ المحاكمة، فكان يجيب باقتضاب مستبعدا أن يكون ابنه عنصر تخريب كما جاء في صك الاتهام. ويعاوده الغضب فيصيح: لماذا لم يعتقلوني أنا، لأن انتقاداته دائما أقولها ومن زمان.. حتى الكلام أصبح ممنوعاً ؟ كيف نغير، إذن، المنكر؟

كانت لالة نجية تعود، من حين لآخر، إلى لا زمتها: «يحاسبني الله، شفت امي لالة الغالية وهي لابسة شالها الابيض..»؛ هي تحكي منامتها وأنا أرى:

رأيت أمي
رأيتم أمي

كانت متلألئة، مُمتلئة بحقيقتها، واثقة في اطمئنان. تبتسم في رضى

صوب تلك الوجوه الفتية والجثث المستيقظة من مراقدها وقد تحولت إلى غابة من المخلوقات السائرة على هاماتها، تزحف نحو المدينة. لا أعرف تلك الوجوه. ربما رأيت بعضها منذ عشرين سنة، منذ خمس سنوات، أو منذ سنتين. هبَّتهم أشبه بالاحتفال الذي يبتكر طقوسه: يَلُمُّون الحجارة، يشعلون النيران ويضحكون كالموج. وفي الليل، تنير قاماتُهم كالشموع وتتحرك صوب القصور والفيللاّت والعمارات الاسمنتية.. تقتحم مخازن الملفات والمصائر، تخُضّها وتنشرها قطعاً قطعاً وقوالب مفككة: أحجار فاس، منازلها وأزقتها.. شوارع البيضاء الفسيحة وكاريراتها ؛ الأحياء المحيطية وصعاليكها وأوباشها يتدثرون بعنفهم الجميل ويكتسحون الفضاء. يخرج الموتى من قبورهم، ينهضون ليلاً ويسامرون الموتى الجدد.

رأينا أمنا، نراها على مدى البصر.

داخل جلبابها، مكشوفة الوجه والشال على كتفيْها

قالت: شيءٍ لِلّه أمولاي ادريس، اللي قَصْدَكْ ما يخيبْ.

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

قلنا: هل تحضرين معنا طقوس «المشاتْفة» ؟ المدينة اغتنتْ، وستقدم ألف ثور يُذْبح في باحة ضريح مؤسس المدينة هذا العام. سيكون الدم غزيرا، نافورةً تنبجس من الأرض، وسيرقص الأطفال والمراهقون والشبان، ثم يُعمّدون أرجلهم الخيزرانية بدم الذبائح الدافىء. ستدوم الرقصة إلى ما لا نهاية، وسيشارك في مباراة المشاتفة أطفال المدن الأخرى. سيُغنون كلهم ويُهلّلون. أصواتهم جميلة. يا أمنا أنت تحبين الأذكار والبُردة والهمزية، وهم ينشدون أشعاراً فاتنة تصف الربيع خارج الأسوار. تصف اللمسة الأولى ورعدة الحب، ولثغة المقنين، ورفّة الأهداب والورود في قلعة «مكونة»، وتصف رحلة الذين يعودون بعد موتهم، وانتظار المنفيين خلف الجدران. يرقصون بلا توقف عدة أيام.

في كل ليلة يقف الموتى، من دُفنوا ومن لم يُدفنوا. تنطفىء ذُبالات المصابيح ويختفي العسسة: يخافون فلا تُسمع صيحتهم وهو يسألون عمَّن يكون القادم.

تعلو الهمسات والهمهمات. تنسج القبلات بين العائدين والمقيمين وشاحاً شفافاً، ويبدأ الطواف عبر الأزقة والايقاع مُوّحد، مُتواتر واهتزازات الأجسام مضبوطة:

— حي.. حيّ.. حي.. حيّ

نريدك أن تبقي معنا. لن تفلتي منا هذه المرة. لن نضيعك. سنستمد منك الصبر والاصرار على البقاء: نتعلم منك البسمة المتناسلة والوحدة المتعدّدة.

أمي، سترين أنني أنا من يُحبك أكثر. سأصيح ملء القلب والفم والكيان منشداً لك: «عِشْقي فيك مُؤبّد». وآخذك من يدك لأرتاد مفاتن العين والقلب. بلا حدود، بلا أسْيجة. أينما تشاءين نُولّي وجهنا. ولن أكتم المشاعر. لن أزِنَ الكلمات. والساقي المؤدّب يسقي الأجنَّةَ والورود ونحن في نشوة الامتلاء والتحقق.

www.liilas.com/vb3

دائماً بين الواقع والحلم تتفتّق لغة القلب. ولكنك الآن ستنسى لغتك. ستنسى اللغات جميعها، ولن تستطيع، في لحظات معينة، أن تتعرف عليها مُسبقا، فتظل زائغ الخطوة عند مفارق الفَقْد والوجْد. ألم يحدث ذلك وأنت تحاول أن «تترجم» أصوات النوارس إلى حروف حين اقتربت منها على شاطىء البحر، في السنة الماضية، وهي تطير محوّمة على نتوءات الصخر الصغير المحتضن، ما يزال، لبقايا الموج المنسحب ؟ فجأة، ضاعت منك الذاكرة وقدرةُ مطابقة أصوات النوارس مع ما تعيه من حروف وأصوات بشرية. لحظة معلقة. وعلى الرمل آثار أقدام النوارس ذاتها راسمة خطوطاً متداخلة بأظافرها المخلبية: مثلثات من غير زوايا، خطوط منحنية، أقواس متراكبة، ونقط متناثرة تجعل منها خربشات تشبه خطا هيروغليفيا... لحظة معلقة. لحظة تُنسيك لعبة الأصوات والحروف: إطلالة على أصوات وكتابة مجهولة.

لحظة بدئية، لكن لُعْبتها لن تدوم طويلاً.

MALLOULI

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

الإيداع القانوني رقم 1995/729

ردمك 1-3-9785-9981

www.liilas.com/vb3
MALLOULI

هذه الرواية

تستمدُّ «لعبة النسيان» عناصرَها وفَضَاءاتِها وشخصياتها من مرحلتيْن تاريخيتين مُختلفتيْن: فاس والرباط في الأربعينات والخمسينات، ثم بعد الاستقلال وإلى حدود التسعينات. ومعنى ذلك، تشخيص التَّعَارض بين مجتمع تقليدي منسجم مع قِيَمِه، ومجتمع يعيش بَلْبَلةَ التحوُّل عبر التَّحديث والصراعات السياسية والاجتماعية...

لكن ما تحرص عليه «لعبة النسيان» هو أن تحكي لنا مشاهد من حياة شخصيات عاشت في فضاءات مختلفة ومن خلال لُغاتٍ متعدِّدة تُمَيِّز الأصوَات وتُؤثِّر على حساسيتها وثقافتها... وشيئاً فشيئاً، نُلامِسُ الأزمنة المتداخلة وما حَمَلَتْهُ من تَغَيُّرٍ وتبدُّل، انطلاقاً من الحياة اليومية لسيدْ الطيب، ولالّة الغالية، ونجية، وسي ابراهيم، والطّايع والهادي... إنها شخصيات لاتريد أن تَنْتَهِي عند حدود زَمَنِها، بل تحاول أنْ تُرافق السيرورة التي لا تنتهي أبداً لِتَتَجَدَّدَ من خلال ذاكرة القارئ القادر على إعادة خَلْقِها لإخراجها من دائرة النِّسيان.

www.lijilas.com/vb3
MALLOULI

نشر : دار الأمان

الثمن 18 درهم